كتاب الالمام للنويري الاسكندراني
دراسة نقدية تحليلية*

عزيز سوريال عطيه
استاذ شرف بمركز الشرق الاوسط
جامعة يوتا ـ الولايات المتحدة الامريكية

هذه ترجمة المقال التالي :

هذا المقال الذي ننقله الى قراء العربية للمرة الأولى ، يشتمل على مقدمة بقلم الاستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدي وآخرها ختامي . وفيها بينهما ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويري وكتابه ، والنويري كمؤرخ ، وحملة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالي .

وقد اشار الدكتور عطية في الفصل الأول التمهيدي الى اسباب اهتمامه بكتاب الالمام للنويري الذي تضمن ضمن ما تضمنه حملة القبارصة على الاسكندرية . كذلك اشار الى النسختين الخطيتين للالمام المعروفتين وقتها ، وهما نسخة كل من برلين والقاهرة ، ومراحل العمل فيهما الى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة في بانكي بور بالهند ، وما استتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق الموسوعة كاملة بلغتها الاصلية العربية ، في ضوء هذه النسخ الخطية الثلاث . وقد ظهرت في سبعة اجزاء في السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد بالهند[1] .

وفي الفصل الثاني وعنوانه « المؤلف وكتابه » عرفنا الاستاذ عطية بالنويري الاسكندراني وسبب تسميته بالاسكندراني التي ترجع الى اقامته الطويلة بالاسكندرية التي عشقها . كما حلل شخصيته ، واشار الى من تسموا بنفس الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حقق نسبة كتاب الالمام اليه واكدها ، واوضح الفترة الزمنية التي شغلها في جمع مادة الكتاب واعداده . كما اشار الى مهنة النويري كناسخ للمخطوطات ، واهميتها في اتساع دائرة معارفه ومعلوماته من ناحية ، وفي تلك المادة الغزيرة الاصيلة التي اختزنها وافاد منها في الوقت

* ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ استاذ تاريخ العصور الوسطى كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

(١) النويري الاسكندراني : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ـ نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية ـ ٧جـ ـ الهند (مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن) ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦م / ١٣٨٨ ـ ١٣٩٦هـ .

المناسب من ناحية اخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا في كتاب الالمام . فعلى الرغم من انه وضعه اساسا بهدف تسجيل كارثة هجوم القبارصة على الاسكندرية ، الا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشعبة تطرق فيها تقريبا الى كل المجالات والميادين . وقد اضفى هذا على الكتاب اهمية مضاعفة ، وان جعل التعامل معه في نفس الوقت امرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر الهائل من المادة البالغة الاهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية في الجزء السابع الاخير من الكتاب والمعنون « فهارس كتاب الالمام » ، والذي تضمن اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتبة ترتيبا ابجديا . فهناك ، مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للامم والقبائل والاجناس ، ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوارعها ، وخامس يتعلق بالسفن ، وسادس بالمصطلحات الحربية . الى جانب فهارس تتعلق بالنواحي الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمي الحيوان والنبات . ولاشك ان هذه الفهارس سوف تتيح للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الالمام ، واستخراج الدرر التي يشتمل عليها بسهولة ودون عناء .

لقد اضاف الاستاذ عطية الجديد الى ما كنا نعرفه من قبل عن النويري وكتابه ، عدّل وصحح بعض الآراء والافكار التي كانت سائدة من قبل ، والتي وردت في كتب المؤرخين الحديثين المعنيين مثل كارل بروكلمان C. Brockelmann والوارد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده في تحقيق اسم النويري ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير اهمية كتابه ، والمآخذ عليه ، واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا اما تضيف جديدا او تغير رأيا كان سائدا .

وفي الفصل الثالث وعنوانه « النويري كمؤرخ » ، حدد الاستاذ عطية دور النويري الاسكندراني في الاسهام التاريخي ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية اخرى . وطرح عدة تساؤلات هامة لها دلالتها هل يعتبر النويري مؤرخا بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ؟ واذا كان الامر كذلك ، هل هو مؤرخ محترف ؟ واذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه في مصاف معاصريه مثل العمري وسميه النويري الكندي ؟ او حتى المتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبي ، والصفدي ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ما هي مصادر معلوماته الوفيرة التي ضمنها كتابه ؟ والى اي حد يمكن الوثوق بها ؟ وبكلمة مختصرة ، ما وزن النويري كمؤرخ ، وما هي مكانته بين غيره من مؤرخي العصر الاسلامي الوسيط ، في ضوء التراث الذي خلفه لنا ؟

تساؤلات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث ، واجاب عنها اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلص من ذلك انه ثمة عدة ركائز اساسية تحدد مكانة النويري في مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة كتاب الالمام . فهو ، اولا ، اديب وشاعر مرهف الحس . . يمتاز بروحه المرحة . ثم انه ، ثانيا ، عاش في الاسكندرية معظم سني عمره ، وعشقها ، واصبح حبه لها يجري في دمائه . وهو ثالثا ، بحكم مهنته كناسخ للمخطوطات التي تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ،قد قام بنسخ الآلاف منها واستوعب مافيها من معلومات غزيرة في كمها فريدة في نوعيتها . واخيرا فان النويري كان شاهد عيان لفاجعة الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، وشاهد بعينيه آثار الدمار الذي حل بالمدينة فور نزول الصليبيين الى الشاطيء . ثم تركها مذعورا الى قريته النويرة ، وعاد ثانية اليها بعد رحيل القبارصة عنها ليرى آثار المحن التي نزلت بها ، واعمال السلب والنهب التي اصابتها . وقد اثارت فيه الفاجعة كوامن النفس ،

وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وامتزجت بهذا وذاك تلك المعلومات الغنية التي اختزنها كناسخ للمخطوطات ، والتي تتميز بالتنوع والتشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات . وقد تبلور كل هذا في كتاب الالمام ، تلك الموسوعة العالمية الهائلة الفريدة في نوعها وبابها . وكان خطها الاساسي هو حملة القبارصة الصليبية على الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل ما اختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات لا اول لها ولا آخر وعلى هذا فمحور الكتاب هو الحملة . وحول هذا الموضوع الرئيسي وبين ثناياه امدنا بمعلومات وتفاصيل هامة عن امبراطوريات الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتماما خاصا الى الفتوحات الاسلامية ، والى الدول الاسلامية في العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والطولونيين ، والاخشيديين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما اشار بالتفصيل اى شخصيات عصره من المماليك في مصر . وزودنا ، احيانا ، بمعلومات جديدة غير معروفة في المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها في بعضها ، تطرق الى الحديث في العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية في العصر الوسيط ، وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشآتها وكل ما يتعلق بها ، الى جانب النواحي الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . ولذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط عديدة شتى تجعلها اشبه بدائرة معارف يمكن ان يفيد منها الباحثون المتخصصون في شتى افرع المعرفة الانسانية . ولكن يجب الا ننسى بعد هذا كله ان النويري السكندري يعتبر حجة فيما يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه « الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ » ، فقد خصصه الدكتور عطية لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الالمام للنويري . وسيادته يعتبر حجة رائدة في هذا الميدان الذي كرس له وقته وجهده . وكانت الثمرة اثراء مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التي لها وزنها وشهرتها العالمية .

وقد سبق ان تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية في كتابه الضخم « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »(٢) ، والذي توصل فيه الى نظرية جديدة اصبح معترفا بها في مجال الدراسات التاريخية ومفادها ان الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم الاسلامي ، في مشرقه ومغربه ، لم تنته حسبما هو معروف في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي (اواخر القرن السابع الهجري) عندما تمكن السلطان المملوكي الاشرف خليل من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامي سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن الهجري) فيما عرف باسم « الحروب الصليبية المتأخرة » ، حينما تعرض العالم الاسلامي لحملات صليبية كبيرة لا تقل ضراوة عن الحملات المبكرة ، وتتفق معها في مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال ، حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل ، وحملة لويس الثاني دوق بوربون على المهدية سنة ١٣٩٠م/٧٩٢هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م/٧٩٨هـ التي قامت بها اوروبا بأسرها لا لاخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول الى بيت المقدس في قلب امبراطورية المماليك ايضا(٣) .

(٢) Cf. Atiya, A.S., the Crusade in the Later Middle Ages, London (Methuen & Co.), 1938, pp. 345 — 378.

(٣) للدكتور عزيز سوريال عطية مؤلف عن تلك الحملة هو : Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934.

وهنا لا يعيد الاستاذ عطية ما سبق ان ذكره عن الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، في كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلا دقيقا رائعا روايات النويري عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذي اضافته الى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التي زودنا بها ولم ترد في المصادر الغربية المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut وليونتيوس ماخايراس Leontions Makhairas[٤] .

والجديد في هذا الفصل ، ايضا ، ان الاستاذ عطية قام بتنسيق روايات النويري الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التي لا تربطها بها اي رابطة ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا مسلسلا ، بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة ، تسجل تاريخ الهجوم من بدايته الى نهايته لحظة بلحظة .

واذا استعرضنا مشاهد الحملة باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الاتقياء في العالم الاسلامي الى اولى الامر في مصر من المماليك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضع سنوات . وهنا تتداخل الحقائق والاساطير حينما يروي النويري بعض المنامات التي تراءت لعدد من الناس بهذا الخصوص . وبعد ذلك يحلل صاحب الالمام تحليلا دقيقا الاسباب التي ادت الى الكارثة ، ويحددها بسبعة ما بين مباشرة وغير مباشرة ، ورئيسية وثانوية ، وداخلية وخارجية ، مبينا كيف انها مجتمعة متكاتفة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن استعدادات الجانبين المصري والقبرصي ، ويشير الى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منهما وأثره . وهنا يحلل الموقف تحليلا دقيقا ، مع ذكر امكانيات النجاح او الفشل فيما يتعلق بقدرة المماليك في مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النويري بصورة حية نابضة عن الهجوم كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج الى الشاطىء ، وتسلقهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التي استولت على الجميع . ثم فراره هو مع الفارين ، وعودته ثانية الى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليسرد ، مرة اخرى ، ما رآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركه المدينة وعودته اليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل اسوارها وقصوا عليه ما حدث بكل دقائقه وتفاصيله .

وكانت الحصيلة ان النويري ـ بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيقه وترتيبه ـ امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة ، والكوارث التي حلت بالثغر السكندري على ايدي الغزاة ، وهي صورة تزود الباحث المتخصص بأتم واوفى وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشي المدمر الذي دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج الى الشاطىء وحتى مغادرتهم المدينة وهي في حالة يرثى لها . وهنا نجد انفسنا امام مشاهد وامثلة متباينة مثيرة للدهشة والعجب . امثلة نادرة للشجاعة الفردية اليائسة المستميتة لبعض اهالي المدينة ، الى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التي اتسم بها بعض المسئولين من المماليك ، الى جانب اعمال القسوة والوحشية التي تفوق حد الوصف والتي مارسها الغزاة ضد الاهالي ، دون شفقة او رحمة او هوادة ، ودون تفرقة او تمييز للسن او الجنس ، بل ودون تفرقة

(٤) **Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.**

او تمييز بين الاهالي من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، الى جانب اعمال السلب والنهب التي ارتكبها الفرنج ، والاسلاب التي وضعوا ايديهم عليها وحملوها معهم في سفنهم ، والحرائق التي اشعلوها في منشآت المدينة ومبانيها حتى اضحت خرابا . ويزودنا النويري ، ايضـا ، بصور عـديدة تكشف عن تـداخل المصـالح الاقتصـادية في المسـائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ، وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا في هذا الهجوم اضرارا بهم وبمصالحهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء ارضاء للسلطات المملوكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم في مصر من ناحية اخرى .

صور ومشاهد عديدة تترى وتتتابع ، سجلها النويـري باسهـاب وتفصيل كبيـرين . ومنها نعـرف ان مدينـة الاسكندرية اضحت بعد مغادرة الفرنج لها قبرا مفتوحا ، بينما جثث الضحايا تملأ شوارعها وازقتها ولا تجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة في مصر لم تندمل ، رغم محاولات السلطات القبرصية اعادة السلام بين البلدين وتناسي الماضي المزعج . وكان طبيعيا ان تتدهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الأول لوزجنان قائد الحملة المشئومة ، وفي عهد خلفيه بطرس الثاني وجانوس الثاني . واثناء حكم الاخير ، انتقمت مصر تماما لما حل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال اعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦ على التوالي . وفي الحملة الثالثة الحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمة ساحقة ، واخذت معها الى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاغلال .

وهكذا كان الثمن الذي دفعته قبرص غاليا ، وكانت الضربة التي الحقتها سلطنة المماليك في مصر بالجـزيرة قاضية ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك ان كفة الميزان في الصراع الطويل المرير بين الصليبيين والمسلمين كانت قد رجحت وبشكل نهائي وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة الى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين شقي العالم وقتها ، ويرتبط ايضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التي ادت الى ذلك الصراع والنتائج والخواتيم التي ترتبت عليه(٥) .

وخلاصة ماسبق انه اذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية ، لا يمكن بحال ان نتجاهل او ان نتغاضى عما سجله النويري السكندري عنها في كتابه الالمام . وان هذا التجاهل او التغاضي يجعل دراستنا عن تلك الحملة ناقصة مبتورة غير مستوفاة .

وفي الفصل الخامس الختامي والأخير ، قدم الدكتور عطية تقييما دقيقا لهذا التراث الهائل المتنوع الذي خلفه لنا النويري ، والذي اثرى به الدراسات الانسانية في مختلف الميادين والمجالات ، وفي شتى نواحي العلم والمعرفة . ولا ريب ان فهارس الدكتور عطية الموضوعية المصنفة التي يشتمل عليها الجزء السابع والاخير من كتاب الالمام ، سوف تلقى الضوء على هذا التراث وتعين الباحث المتخصص على الاغتراف منه .

(٥) اشرت الى ذلك بالتفصيل في مقالي بالانجليزية :

Youssef, J.N., "Arab Awakening during the Crusades," Bulle — tin of the Alexandria Faculty of Arts, Vol.XXIII, 1969, Alexandria, 1971, pp. 11 — 26.

وبعد ، فقد اقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية الى اللغة العربية ، الرجوع الى كتاب الالمام بأجزائه السبعة لتحقيق اسماء الاعلام والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النويري . كذلك اقتضى ترجمة النص ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية ، اضافة القليل جدا من العبارات الموجزة الى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقارىء العربي . وتمييزا لها عن الاصل الانجليزي ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين . كذلك زودنا الترجمة العربية ببعض التعليقات في الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد اضفنا كلمة « المترجم » بعد كل حاشية منها تمييزا لها عن حواشي المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا البحث القيم العظيم .

مقدمة الاصل الانجليزى
للسيد
خسرو مصطفى
مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة يوتا

تولى عزيز سوريال عطية ، مؤسس الشرق الاوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة « كتاب الالمام » في سبعة اجزاء ، والتي وضعها احد مصنفي الموسوعات المصريين من الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي الاسكندراني . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادي من المعلومات في موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانبا كبيرا منه لروايات اصيلة ، تتعلق بنهب القبارصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م [٧٦٧هـ] .

ووفقا لقول الناشر فان النويرى « قد اتخم النص بالمعلومات والتفاصيل ، متنقلا من موضـوع الى آخر دون تمييز » . ورغما عن افتقار النص الى التنسيق ، فانه يصعب تقدير قيمة المخطوط كمصدر للمعلومـات (التى تلقى ضوءا) على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالميا حجة فى هذا الميدان ، اذ كتب فيه بغزارة . وأصبح النص الكامل لكاتب النويرى ، بفضل الجهود التى كرسها فى هذا السبيل ، فى متناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره فى ستة مجلدات . اما المجلد السابع الذى اعده الدكتور عطية فسوف يسهل الى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأى دارس . اذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التى تتضمن مختلف الموضوعات ، كأسماء الاماكن ، والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقوافى ، وما الى ذلك . وسوف تنير هذه الفهارس الطريق امام الباحث فى خضم « المعلومات المشوشة التى يعوزها التنسيق والترتيب » والتى زودنا بها النويرى حسب قول (عزيز سوريال عطية) . وربما كان هذا هو اعظم ما قدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ « كتاب الالمام » للنويرى الى ما يزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغفور له الاستاذ اتين كومب Etienne Combe ، الذى كان فى ذلك الوقت ينشر نصا يعتمد على مخطوطتى برلين والقاهرة . وبعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا الى مصادره مخطوطة بانكى بور ، وهى اوفى من المخطوطتين الاخريين . وكانت الخطة الاصلية تهدف الى نشر طبعة مختصرة (للكتاب) . ولحسن

الحظ ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك ، وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعا بلغته الاصلية وهى العربية . ولا شك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية فى الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية تضحية شخصية هائلة فى سبيل نشر الكتاب . واذا راعينا العناية الفائقة التى بذلها فى العمل فى المشروع قرابة نصف قرن ، الى جانب الوقت الذى اضطر لقضائه فى حيدر أباد (الدكن) للاشراف على نشر كل جزء من اجزائه ، لتذكرنا تعليق احد الباحثين كان يعمل مساعدا للمغفور له ادواردج . براون . edward G Browne بجامعة كامبريدج . لقد شكا من ان براون كان قد اوفده ذات مرة في اربع رحلات مختلفة الى باريس للتأكد من صحة تهجئة كلمة واحدة فى اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الاخرى . ولسوء الحظ فان هذا النوع من العلم فى طريقه الى الزوال ، لاننا نعيش اليوم فى عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفى عصر يهمل التفاصيل التى هى بمثابة العلامات الدامغة للصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارىء الذى يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة « كتاب الالمام » للنويرى ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التى صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية . وان مركز الشرق الاوسط ليفخر بأن يضم الى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الوافى لهذه الموسوعة .

الفصل الأول

تمهيد

ترجع معرفتي بـ « كتاب الألمام » للنويري الاسكندراني الى عام ١٩٣٦م ، وكان ذلك اثناء اعدادي لدراسة مستفيضة لتاريخ « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »(٦) . وباستعراض الحملات الصليبية في شرق البحر المتوسط ، أصبح لزاما تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ الى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب اوروبا لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م . فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتمحيص من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والاصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جويوم دي ماشو **Guillaume de Machaut** الشهيرة تحت عنوان « غزو الاسكندرية » La Prise d'Alexandrie (٧) . وكان دي ماشو بالفعل احد المشتركين في هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولو ان روايته كانت بطبيعة الحال من الزاوية المسيحية [الغربية] ولهذا السبب بدا لي [رأي دي ماشو] رأيا من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، ما لم نعثر على الرأي الآخر من الجانب الاسلامي . ولما كان دي ماشو قد كتب من الخارج *، فانه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حية نابضة للصدام

---

(٦) ظهرت الطبعة الاولى فى لندن ، طبع (Methuen & Co) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية فى نيويورك وتولت نشرها) Kraus Reprints (عام ١٩٦٣ .

(٧) العنوان الكامل للكتاب هو :

La Prise d,Alexandrie ou chronique du roi pierre Ier de Lusignan,ed .Mas — Latrie) Geneva : Societe de I,Orient Latin, 1877.

*اى من خارج مصر (المترجم) .

بين الشرق والغرب [بعامة] وبين قبرص ومصر على وجه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا في الكتاب الهائل الذي الفه النويري الاسكندراني ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذي تملكه من مسلك الغزاة في مدينته الزاهرة الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن الى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ « كتاب الالمام » لتقييم احداث عام ١٣٦٥م تقييما متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثي المستفيضة في العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، في سردي لتاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذي رأى النور [في شكل كتاب مطبوع] عام ١٩٣٨ . وقادني هذا على الفور الى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل في « كتاب الالمام » لهدف آخر الا وهو دراسة الآثار الاسلامية في الاسكندرية في العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له اتين كومب Etienne Combe ، وهو مستشرق سويسري كان يقيم في الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا الى مصر ليعمل مثقفا لفاروق الصغير الذي كان آنذاك اميرا متوجا على عرش مصر . وعندما اعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية* . وعندما التقيت به الفيته وقد ركز « جهوده » لبضع سنوات على الطابع الاسلامي لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المديد . وقد دفعه هذا بالضرورة الى الخوض في المصادر الاسلامية التي ترجع الى تلك الفترة من الزمن ، ومن ابرزها كتاب النويري . ومن الواضح ان طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشابكة المتشعبة في العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب في اعداد اقتباسات مناسبة [من الكتاب] فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها في مجلد واحد .

ثم ما لبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسري للآثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة في مشروع مشترك يحمل اسمينا . وبالفعل انهيت الجزء الخاص بي من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكي لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعتني جامعة متشيجان بان آربور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية باكاديمية العصور الوسطى التي انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعي . وما لبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة وشغلني عملي هذا لبضع سنوات في مجال الدراسات العليا الامريكية . وفي تلك الاثناء توفي الاستاذ كومب في ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك في المعهد السويسري . فلجأت على الفور الى السفارة السويسرية في القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكننا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادارات التابعة للملحق الثقافي السويسري وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn . كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة ايضا ، بالاضافة الى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات

---

* كانت تعرف آنذاك باسم مكتبة بلدية الاسكندرية (المترجم) .

ومسودة الترجمة الفرنسية التي اعدها كومب بقلمه البارع ، صورا فوتوغرافية لنص برلين(٨) ، والنسخة الناقصة لمخطوطة القاهرة(٩) وتعتبر المخطوطتان مكملتين لبعضهما . ويبدو انهما فعلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نما الى علمنا في تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص في الهند(١٠) . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ الى ابي عبدالله محمد بن عمر زين الدين الواقدي . كما توجد مخطوطة رابعة في المتحف البريطاني(١١) ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندي وتحمل اسم النويري . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة [بين مختلف النسخ]، فان تلك التي يمكن الافادة منها هي مخطوطات برلين والقاهرة وبانكي بور ومع ذلك فان كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤها وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفي رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتي القاهرة وبرلين اساسا لنصها النهائي ، طالما انهما نسختان عن النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجودة في المخطوطات الأخرى .

واثناء انغماسي في مراجعة مشروع كومب ـ عطية توطئة لنشره ، تلقيت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته . كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربي . وفي الحقيقة نظرا لأهمية الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة في بانكي بور ، فقد نجح المسئولون في الدائرة في اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره في [السلسلة الجديدة من مطبوعات] دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق في الدائرة عام ١٩٣٨(١٢) ، ومبنيا على المخطوطة الهندية التي اتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض(١٣) .

وبدا واضحا ان المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء اجزاء منه . ولذلك بدأ مشروع كومب ـ عطية الاصلي يأخذا اتجاها مغايرا . ولأسباب عديدة رحبنا في نفس الوقت

---

(٨) تتألف مخطوطة برلين من قسمين فى مجلد واحد تحت رقم ٣٥٩ Wetzstein (ص ١ ـ ١٣٩) ورقم ٣٦٠ (ص ١٤٠ ـ ٢٧٠) . انظر :
Ahlwardt, Vergeichniss der Arabischen Hand — schriften der Koniqlichen Bibliothek zu Berlin, 10 vols .) Berlin, 1887 — 99 (, IX , 304 — 6 .

هذا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الاولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينسبها الوارد الى مجهول . ويأخذ بهذا الرأى بروكلمان فى مؤلفه :
C . Brockelmann , Geschichte der Arabischen Literatur ,
2 Vols .) Berlin , 1898 — 1902 (, II, 35 — 36 .

ولو انه صحح ذلك فيما بعد فى الملحق الثاني ، ص ٣٤ .
(٩) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ ـ ٤٩ تاريخ .
(١٠) بانكى بور ، الجزء ١٥ ، ١٠٦٦

(١١) Ch . Rieu , Supplement to the Cataloque of the Arabic Manuscripts in the british Museum London , 1894 (,No . 606 , Fol . 50/70 .

(١٢) كانت مسألة اعداد نص بانكى بور ، فى والواقع ، موضع اعتبار فى حيدر آباد فى عام ١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م ، كما ذكر بروكلمان فى الملحق الثانى ، ص ٣٤ .

(١٣) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التى بعثت بها الى الدائرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .

باقتراح نشر الكتاب كله دون اختصار . اولا لأن مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد اصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالي لما يجب ان تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لأول مرة . وثانيا ، ان وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربي ، اطلق يدي المحرر تلقائيا من القيد الذي كان يحصر جهوده في جزء خاص او اكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كومب ـ عطية القديم الخاص باستبعاد جميع الاجزاء التي لا علاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لا بد من مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعثا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص بأكمله في الأجزاء الستة الأولى . ونظرا للطابع الذي يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذي يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد اصبح لزاما تخصيص مجلد سابع وأخير للفهارس العديدة التي قد تساعد القارىء على تحديد مكان معلومة ما ورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة او بين ثنايا حشو النص المسهب .

وربما كان الجزء الوحيد الذي اغرانا بالحذف [من الكتاب] هو البذاءات التي تمس الانبياء(١٤) في مواضع منه ، او تلك التي تدخل في مناقشة صريحة حول الجنس في مواضع اخرى ، ومع ذلك ، فقد تقرر في النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها وذلك لأسباب عدة . اولا ، لأنها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذي لم يرفضه او يتعفف عنه العقل العربي في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] باعتباره امرا مشينا . وبعبارة اخرى ، يجب ان ينظر الى كل ما اورده النويري في هذا المجال كتعبير عادي لاخلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التي كشف النقاب عنها صراحة في هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اسس دراسة فسيولوجية الجنس . وفي الحقيقة ، تأرجحت شخصية النويري التي تميزت بروحه المرحة بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المبتذل . وفيما بين هذين الطرفين [المتناقضين] كتب تقريبا بحرية في كل موضوع يمكن تصوره ومألوف لمعاصريه ، مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر [الذي عاش فيه] . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التي جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة في ثنايا نصه المسهب ورواياته غير المترابطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا منسقا لهذا النص العظيم ، وتهيء السبل اللازمة لتحديد مكان اي موضوع هام ومحدد عن طريق الفهارس [التي اعددناها لهذا الغرض] .

الفصل الثاني

المؤلف وكتابه

الاسم الكامل لمؤلف « كتاب الالمام » هو محمد بن قاسم بن محمد النويري(١٥) المالكي الاسكندراني . والاسم غير مدون على صفحة العنوان في كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة ، الامر الذي ضلل الوارد Ahlwardt حتى

(١٤) محمد بن قاسم النويري الاسكندراني : كتاب الالمام ـ نشر عزيز سوريال عطية في سبعة اجزاء (حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية ١٩٦٨ ـ ١٩٧٦) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم « الالمام » . انظر بصفة خاصة جـ ٦ ص ٢٧٩ وما يليها وص ٢٩٠ وما يليها .

(١٥) التهجئة الواردة هنا هي التي حددتها دائرة المعارف العثمانية .

انه نسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه في ذلك بروكلمان Brockelmann في النسخة الاصلية لكتابه المعنون ' تاريخ الادب العربي ' ، ولو انه صحح الخطأ بعد ذلك في ملاحقه[١٦] . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكي بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زين الدين بن الواقدي . وهذا بالطبع غير صحيح ، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذي يظهر مرة اخرى في مخطوطة المتحف البريطاني الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب اليه في شعره في عدة مناسبات بين ثنايا النص ذاته[١٧] ، وبذا لا يترك لنا مجالا للشك في شخصيته . وعلينا ، في ذات الوقت ، ان نتذكر ان « كتاب الالمام » لم يكن مجهولا لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلاني[١٨] (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوي[١٩] (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللاخير بعض الكلمات التي ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة [زمنيا عن عصر النويري] مثل [معجم] حاجي خليفة[٢٠] وكتاب عمر رضا كحالة[٢١] ، اسم « كتاب الالمام » بين قوائمها كاملا مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويري لنفسه كسكندري (الاسكندراني) يعزي الى اقامته الطويلة في تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن اشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب ' نهاية الارب ' ،[٢٢] ووجيه الدين عبد الرحمن[٢٣] الذي توفى عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م* وهو يقاتل في صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك في دمياط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلا من قرية النويرة من اعمال مديرية البوصيرية ـ محافظة بني سويف الآن ـ في مصر الوسطى .

ووفقا لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم الى الاسكندرية في شهر ذي الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م[٢٤] بهدف زيارة المزارات الاسلامية المقدسة واضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال ، ووجد ان المعيشة فيها مستساغة الى حد بعيد ، قرر الاقامة فيها . ثم تزوج فيها بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها الى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هربا من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة

---

(١٦) انظر الفصل الاول ، حاشية رقم ٣ .

(١٧) الالمام جـ ٢ ، ص ٢١٩ ، جـ ٣ ص ٨٠ ، جـ ٤ ص ٤٤ و ٤٥ ، جـ ٥ ص ٢٩٧ . ويشير النويري في الجزء الثاني ص ٥٢ الى قريته الاصلية النويرة التي عاد اليها بعد هروبه من الاسكندرية سنة ١٣٦٥ .

(١٨) الدور الكامنة في اعيان المائة الثامنة (القاهرة ١٩٦٦) ، جـ ١٤ ، ص ١٤٢ .

(١٩) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

(٢٠) كشف الظنون (اسطنبول ١٩٤١ ـ ١٩٤٥) ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢١) معجم المؤلفين (دمشق ١٩٥٩ ـ ١٩٦١) ، جـ ١١ ، ص ١٤٧ .

(٢٢) نهاية الارب في فنون الادب ، وهو موسوعة ادبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكري الكندي الشافعي المعروف بالنويري . والموسوعة تقع في عشرين مجلدا (طبع القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧٥) .

(٢٣) الالمام ، جـ ٥ ، ص ٩٠ ـ ٩٢ . هذا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وجيه الدين استجاب لنداء مهين من قبل احد الفرنجة في ساحة القتال ، ومن ثم فان الفرنجي الذي اعترته الدهشة صبر جثمان الشيخ وحمله معه الى عكا حيث يرقد الفرنجي في مدفن الشيخ بعد اعتناقه للاسلام .

* التاريخ في الاصل الانجليزي ١٢١٩ م ، ولعله خطأ مطبعي ، وصحته ١٣١٩ م (المترجم) .

(٢٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٢١٩ .

الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / اكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويري قد اتم في هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها في هذه المدينة التي عاد اليها بعد ذلك .

وعند عودته الى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منها ، ومشاهـدته الكـوارث التي حلت بها اثنـاء احتلالهم القصير لها ، والتي اثارت الرعب والهلع في نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل في جمع نصه في جمادى الثاني ٧٦٧ هـ /١٣٦٦ م ، واتمه في ذي الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م(٢٥) . ويمكن القول ، بناء على ذلك ، انه امضى نحو ثماني سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويري تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه في السنة سالفـة الذكر ، فلا بد اذن انه توفى بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة في عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروى في ثنايا كتابه حادثة ضياع صقلية من ايدي المسلمين ووقوعها في قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ (يونيو ١٣٧٥ ـ مايو ١٣٧٦ م)(٢٦) .

ويتحدث النويري عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندرية المسلمين الاثرياء ، وذلك اثناء اقـامته الطويلة في تلك المدينة التي ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . ويحصر الكتب التي كان على معرفة بها ، والتي جمعنا عناوينها في فهرس خاص(٢٧) ، يتضح ان مكتبته قد زخـرت بمجموعة لا بأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة في مجالات عديدة في الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ ان ينقذ اويستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التي قام بنسخها ، واستخدمها في تأليف كتابه الخاص الذي قدر ان يكون « كتاب الالمام » . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقـة ، فكلمة « إلمام » تعني نتفا وشذرات [من مختلف مصادر المعرفة] ، وهي واضحة من بناء الكتاب . ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للحيرة . اذ يبدو انه كان يهدف الى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها في النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط الى حد ما في بعض الاحيان . وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته في نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التي تتميز بأهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويري بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكنز ثمين متراكم حول واقعة رئيسية ، الا وهي واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفي الحقيقة ، لا يعتبر افتقاد النويري لمسألة تنسيق مادته هو العيب الوحيد في كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسع ، ان نجد تفسيرا لخواص ولمسات معينة في اسلوبه . اذ يخونه الجهل ببعض القواعد التي تعتبر من ابسط قواعد النحو العربي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من

---

(٢٥) على صفحة عنوان الجزء الاول تبدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ مطبعي وقع سهوا في الاجزاء الاخرى . وعلى اية حال ، فان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويري الذي وقع بعد كلا العامين .

(٢٦) الالمام ، جـ ٣ ، ص ١٠٢ .

(٢٧) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ١٢ .

الانصاف ان ننسب هنات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لا توجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا عن نسخته الخطية الاصلية هم المخطئون . ولكن ، لماذا تظهر في جميع المخطوطات التي تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابسط القواعد ؟ واما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعبيرات العامية لاحداث الحياة اليومية في مصر [الواردة في كتابه] ، فاننا نرى من المناسب اجراء حد ادنى من التصحيح والتهذيب اللذين لا بد منهما في اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر في سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق الفرد بين مثل هذه المتناقضات في انجازات النويري الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة في الاجزاء الاخيرة [من الكتاب] لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربي ، وعلى مهارته الادبية في تناول موضوعاته . ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] والشخصيات المرموقة المعاصرة له .

وترجع قيمة « كتاب الالمام » كمصدر ثقة الى مصادره [التي اعتمد عليها] من جهة ، والى ملاحظات النويري نفسه كشاهد عيان [لأحداث ذلك الزمان] من جهة اخرى . ففي المقام الاول ، جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمنيا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لا بأس بها . فهو بكل بساطة حشا مادته في صلب النص ، متنقلا من موضوع الى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسيم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط متاهات رواياته غير المترابطة لحد ما والمكتوبة باسلوب سجعي متكلف ، يستطيع الفرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز بأهميتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك [في ثنايا النص] . وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذي لا مبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم للموضوع في اربعة عشر فهرسا تضمنها الجزء السابع والاخير[من الكتاب] . وفي رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارىء على تحديد مكان المعلومة التي يبحث عنها دون الخوض في [متاهات] النص المربك بأكمله .

وفي المقام الثاني ، شب النويري ليكون مواطنا صميما من مواطني الاسكندرية . واصبح على دراية تامة بمنشآتها وأزقتها وحواريها وأسوارها وأبراجها وفنادقها (أي نزلها) وبواباتها وشواطئها والشخصيات المعروفة من أهلها . كما كان شاهد عيان للاحداث التي كانت المدينة مسرحا لها . امام مالم يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر ، او عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور في التفاصيل الدقيقة التي زودنا بها والتي تتميز بطابعها الفريد فيما يتعلق بطبوغرافية الاسكندرية وآثارها في العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة في فهرس خاص على شكل جدول[٢٨] يبين انه مصدر ثقتنا عن الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانب الاكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة [لدينا] باللغة العربية عن حملة القبارصة [على الاسكندرية] عام ١٣٦٥ م . وهو في ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة أخرى مراسل أنباء خرج لجمع

---

(٢٨) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٦ .

كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهي التي تتناول التفاصيل الخاصة بالأحداث التي لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا اسماء مسئولة لاشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق اقواله .

رابعا ، لقد ظلّ النويري ، باعتباره مواطنا يعيش في ميناء من أهم موانىء حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التي ارتادت مياهه . وهنا نجد سجله المفصل عن السفن ، وأوصافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، وحمولتها ، ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل في مصادر العصور الوسطى العربية . وقد افردنا فهرسا خاصا[٢٩] لهذا الجانب من الكتاب الذي سيثبت عند القاء نظرة خاطفة عليه ضخامة الجهد الذي بذله [النويري] في مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربي والسفن العابرة في كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي ، وأحواض أنهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما للغاية في هذه الناحية ، حتى ان القاموس الوحيد للملاحة العربية الذي جمعه كندرمان Kindermann [٣٠] يكاد يرتكز كلية على المعلومات الواردة في « كتاب الالمام » .

خامسا ، يزخر الكتاب بمسائل محددة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية . كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن أن جانبا كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والأنهار والجزر والبلدان في عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافي والعالم الفلكي . فالنويري على سبيل المثال ، كان على دراية بكروية الارض قبل كوبر نيكوس Gopernicus وجاليليو Galileo بوقت طويل ، حينما كان العالم الغربي يعتقد من وجهة نظر الكنيسة [اللاتينية] أن الأرض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالرعب والأخطار والتنانين الضخمة . ومما يثير الاهام أن نقرأ أحيانا بين ثنايا المعلومات التي يحتوى عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة في أوروبا في العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الأسطورية في بعض العواصم والتي لا تزال بحاجة الى شرح الشراح وتفسير المفسرين الحديثين[٣١] . وان المرء لتعتريه الدهشة عند قراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات . ومع أنها قد تبدو مقتضبة ، الا أن رواياته في هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما أنها تفيد مؤرخي التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالاضافة الى تجارة الفلفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويري النباتات الجذرية والحاصلات وأشجار الفاكهة والأخشاب الثمينة وغيرها من المواد التي لها أهميتها في عمليات تبادل الصادرات والواردات وعقد الصفقات التجارية في العصور الوسطى[٣٢] .

سادسا ، يلاحظ اثناء سرد النويري للمعارك والعمليات الحربية التي تتعلق بالفتح العربي والواردة في الحوليات المبكرة ، وكذلك ما يرتبط بالحروب التالية المتقطعة التي نشبت بين المسلمين في الشرق الاوسط وبين المسيحيين في الغرب ـ أن المؤلف أمد القارىء بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين في تلك

---

(٢٩) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس السابع .

(٣٠) H.Kinder,annm Schiff in Arabischen Unter suchung uber Vorkommen und Bedeutang der Termini) Zivickau I Sa.1934 (.

(٣١) الالمام ، جـ ٧ ، الفهرسان الثاني والحادي عشر .

(٣٢) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية ، وعمليات الحصار وآلاتها ، والاساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين [المعنيين بفن الحرب والقتال] ماسة لهذه المعلومات النادرة الى حد ما ، للاسهام في توضيح الجوانب الغامضة التي اكتنفت فن الحرب عند العرب في العصور الوسطى . وهنا نجد أن لدينا فيضا من المعلومات الجديدة نسبيا التي تثري معرفتنا الضئيلة في هذا الموضوع بالذات ، وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسير المصطلحات التي استخدمها النويري في هذا المجال ، ولم يحالفنا التوفيق في عدد منها . وعلى ذلك فاننا نسجل المصطلحات كما وجدت في المخطوطات الاصلية ، تاركين عملية تفسير المسائل التي لا تزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلا[٣٣] .

ثامنا ، علينا أن نتذكر أن النويري يعتبر انسانا بحكم مهنته اذ تبدو نواحي اهتماماته بجلاء في استخدامه المتواصل للشعر وفي دراساته الادبية [٣٤] . وكان النويري نفسه ، حسبما ذكرنا من قبل ، شاعرا من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذي يرجع الى العصر الذهبي للأدب العربي ، قد وصل بينه وبين سرد شعر عصره المنثور الدنيوى . وبناء على ذلك ، يمكن القول أن هذا القدر الهائل من المقتطفات الشعرية المتنوعة في « كتاب الالمام » قد استمد ابتداء بالمعلقات ـ وهي ملاحم الشعر الجاهلي الخالدة ـ ، ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابي نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المجهولة نسبيا امثال التكريتي وابن ابي حجلة وابي الفضل قاسم القصار وابي العباس المرسى ، وحتى النويري نفسه الذي كان من بين شعراء أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف في بعض الحالات يقتبس دواوين بأكملها أو مجموعات من القصائد والأشعار . وآية ذلك ربما يكون شعر مجنون ليلى[٣٥] ، حيث جمع النويري قصائد كافية للاسهام في اعادة نظم ديوانه باضافة أشعار أخرى اليه لم يحالفنا التوفيق في تحديد مكانها في الطبعات الأقدم التي لا تزال موجودة للشاعر الغنائى الشهير . وتمشيا مع الروح الدينية التي يتميز بها النويري نجده يقتبس في نفس الوقت اقتباسا مكثفا من الشعر الديني ، مثل القصيدة العظيمة التائية « للشاعر ابن الفارض[٣٦] . فقد جمع فعلا كل المراثي التي نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة الاسكندرية الغنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التي نظمها ابن أبي حجلة والتي سنوجه لها عناية خاصة في الفصل التالي . ومع أنه اقتبس بعض الرجز[٣٧] الى جانب الألغاز والأحاجي الشعرية لمجرد التسلية ، الا أنه أدى ذلك بطريقة سطحية عابرة دون امعان أو تدقيق ، وهي لا تتطلب معالجة فاحصة . أما شعره الشخصي فهو ، أساسا ، خاص بمدح الشخصيات التاريخية او التباكي على المصير الرهيب لمدينته العظيمة[٣٨] .

---

(٣٣) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٣٤) يصعب ان نجد فصلا في مختلف اجزاء الكتاب لا يتضمن اقتباسات شعرية ترجع الى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٤ في الجزء السابع عن الشعر والشعراء .

(٣٥) يدعى قيس بن معاذ . انظر الالمام ، جـ ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت أشعار له في جـ ١ ص ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، جـ ٦ ص ٢٣٢ و ٣٣٩ وما يليها و ٣٦١ وما يليها .

(٣٦) نفس المرجع ، جـ ١ ، ٦٣ و ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ١٩٨ و ٢٢٣ و جـ ٢ صفحة ١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و جـ ٣ ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ و ١٧٢ و ٢٣٢ و جـ ٤ ، ص ٢٢٩ و ٢٣٨ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ و جـ ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .

(٣٧) شعر شعبي مفعولي الوزن . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٣٨) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

تاسعا ، يحتل النويري مكانته كروائي أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه الى نوعين : أحدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهي عبارة عن أحداث كان يسردها أهالي الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها* تتضمن ما قاسوه على أيدي الفرنجة الغزاة [٣٩] . هذا ، وتوجد في الحقيقة حكايات أو روايات تاريخية عن أحداث ووقائع معينة أثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل التالي الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والاحداث . (هذا عن النوع الأول من قصصه) ، أماالنوع الثاني فهو يتضمن قصصا أطول هي من وحي خيال النويري . وهي تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين[٤٠] ومعارك باسلة مع الأسود المفترسة والأرواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل ما يتعلق بالسحر والمعجزات . ويمكن هنا أن نلمس مدى تأثير قصص « ألف ليلة وليلة » التي كان (النويري) على معرفة بأصولها ، ولو أن هذا لايظهر في قائمة كتبه لسبب جلي هو أن هذا العصر هو العصر الذي بدأ فيه فن القصص الخيالي الخالد يأخذ شكله النهائي . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره في هذا المجال بالذات ، تاركين الأمر لمجرد الحدس والتخمين . فمن أعجب قصصه قصة سردها باسهاب في مطلع « كتاب الالمام » ، وهي أفضل مما جاء في نهاية الكتاب الذي خصصه للقصص الخيالي البحت . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس **Secundus**[٤١] هو ووالدته . وهي القصة الوحيدة التي ترجع الى أصل أغريقي ، وهي تتفق الى حد بعيد مع المأساة الاغريقية الشهيرة « الملك أوديب » . **Oedipus Rex** وعلى العموم ، يبدو أن النويري كقصصي هدفه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغة[٤٢] .

وقد يكون من غير المناسب أن نختتم هذا العرض دون أن نسجل صفات النويري البارزة على امتداد كتابه بأكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله ايمانه الشديد اقرب الى التزمت . فاقتباساته من القرآن الكريم واستخدامه للاحاديث النبوية ظاهر في كل فصل من فصول كتابه . حقيقة أنه أخذ أيضا عن الكتب المقدسة الأخرى ، وتزخر كتاباته بأسماء الأنبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد في كل أحكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وما جاء في الحديث الشريف . ولو أنه من الصعب قبول صحة كل ما سجله من أقوال عن الرسول (ص) . ومع ذلك ، فانه من الأهمية بمكان ، في ذات الوقت ، دراسة كل ما نسب زورا وبهتانا الى الرسول ومعرفة مصدر نسبتها اليه . فقد أصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية واحالاته الى الكتب الأخرى المنزلة ، جديرة بفهرس خاص[٤٣] .

ومع ذلك ، علينا أن نتذكر أن النويري بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التي دمرت تقريبا المدينة العظيمة التي كان قد ولع بها . ولذا لا نستطيع التغاضي ، بداءه ، عن علو قدره كمؤرخ لتلك الأحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ « كتاب الالمام » كمصدر عام لموضوعاته المختارة في التاريخ الاسلامي ، ثم بعد ذلك

---

* اى لم يغادرها أثناء حملة القبارصة عليها (المترجم) .

(٣٩) نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ١٧٩ وما يليها .

(٤٠) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

(٤١) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٥٨ وما يليها .

(٤٢) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٣ (فهرس الموضوعات) .

(٤٣) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

كسجل لتلك الأحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشئومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

الفصل الثالث

النويري كمؤرخ

من الخطأ تعريف النويري بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، أو محللي الأحداث في عصره في القرن الرابع عشر الميلادي القرن الثامن الهجري . ومن الخطأ الجسيم ، في ذات الوقت تجاهله كلية في مجال التاريخ . فقد أسهم بالفعل اسهاما عظيما في تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة في نوعها . وعلى أية حال ، اذا خرجنا عن هذه الدائرة ، يتضح أنه كتب في تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة أنه سمح لنفسه أثناء جولاته واستطراداته بالخوض في الحديث عن العديد من الامبراطوريات الأخرى التي ترجع الى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فان اسلوبه في عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسلية قرائه . اذ تناول الأحداث بأسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذي يركز على الناحية الدرامية والاسطورية أكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن الصعب تتبع أصول المصادر التي استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد أنه اعتمد الى حد بعيد على الكتابات الأدبية العربية المتقدمة ، والتي كانت لا تزال موجودة في عصره ، ثم أصبحت الآن في حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين في عصره ـ ويحتمل ان يكون (صاحب لالمام) على معرفة بمؤلفاتهم ـ فمن بينهم من يحمل نفس الاسم[٤٤] ، وهناك أيضا العمري[٤٥] العظيم الذي توفي عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م . ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويري في نفس مرتبة أي منهما . وليس باستطاعتنا ، كذلك ، أن نضعه في مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له تقريبا ، أمثال الذهبي[٤٦] ، والصفدي[٤٧] ، وابن الفرات[٤٨] ، وابن خلدون[٤٩] ، وكثير غيرهم ممن خلفوا كتبا ومؤلفات تعتبر أفضل من كتابه ، كما أنها نشرت قبل « كتاب الالمام » بفترة

---

(٤٤) شهاب الدين احمد [بن عبد الوهاب بن محمد] صاحب كتاب « نهاية الارب » وقد توفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . انظر الفصل الثاني ، حاشية رقم ٨ .

(٤٥) اسمه بالكامل هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمرى القريشى الشافعي ، توفى سنة ظهور الوباء الاسود ، مخلفا العمل العظيم المعنون « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، الجزء الاول ، نشر احمد زكي باشا (القاهرة ١٩٢٤) . وثمة اجزاء منه تتعلق باليمن تولى نشرها ايمن فؤاد سيد (القاهرة ١٩٧٤) . وبه قسم عن المغول مصحوب بترجمة باللغة الالمانية بقلم كلاوس لخ Klaws leck (طبع فيزبادن Wiesbaden سنة ١٩٦٨) .

(٤٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبي التركماني الفارقي الشافعي ت ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م له عدة مؤلفات في التاريخ الاسلامي .

(٤٧) خليل بن أيبك بن عبد الله ابو الصفا (ت ٧٤٦ هـ / ١٣٦٣) .

(٤٨) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) . وقد نشر قسطنطين زريق جانبا من تاريخه (طبع بيروت ، ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) ، وحسن الشماع (طبع البصرة ، ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) .

(٤٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) .

طويلة . كذلك يجب أن نأخذ في الاعتبار أن النويري كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . ثم أن معظم الذين جاءوا بعده أمثال ابن حجر(٥٠) ، والسخاوي(٥١) ، كانوا في نفس الوقت على علم بكتابه ، ولو أن الأخير انتقده نقدا لاذعا .

وعلى أية حال ، يقف النويري باعتباره حجة له ثقله في حقل التاريخ على أساسين على أقل تقدير . فان ما سجله عن أحداث حملة القبارصة المشئومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م [٧٦٧ هـ] واحتلالهم القصير لها ـ حسبما ذكرنا من قبل ـ هو في المقام الأول أوْفَى الروايات الاسلامية الموجودة . وبسبب الأهمية البالغة التي تتمتع بها رواياته ، من ناحيتي الكم والكيف ، سوف نخصص الفصل التالي لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يعد كتاب النويري تكملة فريدة في نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة (أي الخطط) التي دونها أقدر استاذين في أخريات العصور الوسطى وهما المقريزي(٥٢) والسيوطي(٥٣) . وقد ركزا اهتمامهما على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويري بمدينة الاسكندرية . وفي هذا الخصوص ، سد الأخير فجوة في المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة في مصر في العصور الوسطى . ومع أنه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، الا أنه في الواقع أنجز مهمته تلك دون أو يوليها العناية الواجبة ، وذلك عند استعراضه للاحداث المرتبطة بتاريخ المدينة في القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التي اتخذها موطنا له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيل ، أيا كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين في التاريخ الوسيط المتخصصين في دراسة هذه المنطقة . وفي حكم المستحيل ان نلم الماما تاما في مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التي تعرض لها النويرى. وكل ما نستطيع حقا أن نفعله ، في نطاق محاولتنا هذه ، هو تصنيف مادته وتقديمها للقارىء مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الاساسية لنصوصه الضخمة والمتشابكة الى حد ما . وجدير بالملاحظة أنه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والنوادر التي لها علاقة سطحية بالموضوع أو التي لا تمت للموضوع بصلة. وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت في غير موضعها الطبيعي .

وفيما يتعلق بالتاريخ القديم ، ففضلا عن موضوع التراث الجاهلي في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشيء الذي يتكرر على امتداد كتاب النويري ، فانه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية(٥٤) . وهو يوجه عناية خاصة الى كسرى أنو شروان وابنه هرمز نظرا لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبي محمد (ص) . ويتحدث بفصاحة

---

(٥٠) شهاب الدين بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) . انظر كتابه « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » ، ٤ جـ ، (حيدر آباد ١٩٢٩) ، جـ ٤ ، ص ١٤٢ .

(٥١) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) . انظر كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » (القاهرة ١٣٤٩) ، ص ١٢٢ .

(٥٢) تقى الدين احمد بن علي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه اللذي يقع في اربعة اجزاء (طبع القاهرة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨) هو « كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » .

(٥٣) ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) . وعنوان خططه هو « حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة » ، ٢ جـ . واحدث طبعاته تولاها محمد ابو الفضل ابراهيم (طبع القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨) .

(٥٤) الالمام ، جـ ١ ، ص ٥١ و ٥٣ وما يليها .

عن الفتح العربي لامبراطورية الفرس الساسان . ولكنه يقلب في الجزء الأخير من كتابه[٥٥] التسلسل الزمني للوقائع والأحداث بالعودة الى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الأكبر .

ويخصص النويري ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن أغسطس[٥٦] ، ويزودنا بسرد مشوش عن حروبه مع أنطونيوس وقلابطرة كليو بترا . وطبقا للمسميات العربية ينتقل الى طباريوس « طبيريوس » وقلودس « كلوديوس » ثم بشبانس « فنسبسيان وطيطيس « طيطس » ثم طربان « تراجان » ودقيانوس « دقلديانوس » . ثم يتعرض أثناء حديثه لمولد المسيح ومعجزاته ، كما يشير الى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشتت اليهود من أورشليم بين الأمم .

ويشير النويري باقتضاب الى الاباطرة البيزنطيين[٥٧] ابتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيداسيس [ثيودوسيوس] وهرقل . وفي حديث موجز مشوش الى حد ما يستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية[٥٨] . وثمة اشارات عارضة عن احداث هامة في التاريخ البيزنطي مبعثرة في مواضع متفرقة في الاجزاء الاخرى [من الكتاب] ، وبصفة خاصة عندما خصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربي لبعض المقاطعات البيزنطية في غرب آسيا وشمال افريقية .

وفي موضع آخر من الكتاب ، يعود النويري للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع الى عهود قديمة عن ملوك في العصور السحيقة الغابرة . ويتحدث باسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم[٥٩] ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها[٦٠] . وهنا يتحدث النويري عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الحفريات . ونجد في النص اسماء ملوك مصر الذين يصعب التعرف على شخصياتهم[٦١] . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المغمورة كتبه شخص يدعى الوصيفي[٦٢] . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اخماد ثورات القبط في الدلتا . ولا تزال هذه الفتحة التي نحتها المأمون في جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخله الوحيد حتى يومنا هذا .

وكان الهدف الاساسي لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلا آخر بهذا الخصوص في عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذي تابع واليه في مصر المسمى ابن المدير هذه الحفائر في مكان آخر .

---

(٥٥) نفس المرجع جـ ٥ ص٤٣ وما يليها .
(٥٦) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص٩٣ وما يليها .
(٥٧) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص٩٧ وما يليها .
(٥٨) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص٣٥٧ وما يليها .
(٥٩) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص٧٧ وما يليها .
(٦٠) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .
(٦١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص٣٣٢ وما يليها .
(٦٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، في عهد كل من الطولونيين (٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) والاخشيديين (٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) ، اعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وان كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية وموميات . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة ، الا انه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت اليه الدراسات الاثرية في العصور الوسطى .

ان الاحداث التاريخية المختلفة المتباينة التي حاول النويري تغطيتها دون خطة محددة ، لهي شديدة الوفرة والتنوع والتشعب والتداخل ، حتى اصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهارسنا الشاملة . فهي ، اولا ، تدور حول الاحداث المشئومة لمدينة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . اذ انبرى لجميع النواحي ، مع التركيز على مسألة واحدة الا وهي الانتصارات التي حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام في عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية . وكثيرا ما يروى القصص والنوادر التي يمكن ان تكون ذات فائدة في القاء الضوء على التاريخ الاجتماعي لتلك الفترات الغامضة . ومع انه كان يستهدف المتعة والتسلية ، الا انه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام في تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض « كتاب الالمام » ايضا ، اسماء العديد من الصحابة بما يطابق ما جاء في معظم الحوليات المعروفة الاخرى . وبالاضافة الى ذلك ، فان المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة اغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات الهامة . وينطبق هذا الحكم العام تماما على الخلفاء الراشدين[٦٣] ، والامويين[٦٤] ، والعباسيين[٦٥] . وكان النويري في بعض الاحيان يحيد عن طريقه ليعدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتي لا بد وأن يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة أو مجهولة أو مفقودة .

وثمة مثال آخر غير عادي هو حصره لألقاب الخلفاء ، الى جانب مظهرهم الشخصي والسمات التي تتميز بها شخصية كل واحد منهم[٦٦] .

ويتضح اهتمام النويري بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وممالكها الاسلامية[٦٧] . فهو يحدثنا عن الحكم السني في عهد الأسرتين الطولونية والاخشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد[٦٨] . قبل انتقال السلطة الى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلي مصر (وهو المواطن الصقلي الذي يدعوه

---

(٦٣) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٣٣ وما يليها و جـ ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٦٤) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٥٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها و جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٦٥) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٦٦) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٦٧) يتضح اهتمام النويري بتاريخ مصر في اطار علم السياسة الاسلامية في الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر في القرآن الكريم (ص ٢٧٤ ـ ٢٧٨) ، وحصر الرسل والأنبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين وكذلك الشيوخ والأبرار ومشاهير الأدباء الذين دخلوا مصر (ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها) .

(٦٨) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الاشارة الى أحداث هامة معينة في مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والقاضي بكار بن قتيبة (جـ ٣ ، ص ٢٨٨ وما يليها) .

النويري بالرومي) عام ٩٦٩م . وقد أعد ملخصا عن حياة الخلفاء في ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم في عام ١١٦٩م عندما قبضت الدولة الأيوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطنة السنية لصلاح الدين[٦٩] .

وان اهتمام « كتاب الالمام » بموضوع الفتح العربي لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الاسر الحاكمة (المشار اليها) . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح أنه اعتمد الى حد بعيد على مؤلفات الواقدي[٧٠] الذي تخصص في سرد مغازي الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويري معظم رواياته في فتح دلتا النيل ، اكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو (بن العاص) على حصن بابليون (٦٤٠م) الذي أشار اليه بايجاز في بداية الكتاب .[٧١] فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم في طريقهم الى الاسكندرية على مدينة ترنوط القبطية ، وذلك بمعاونة امرأة ما كانت تعمل في قصر الحاكم تدعي ريني . وهي أخت مارية القبطية التي كان المقوقس صاحب مصر (من قبل بيزنطة) قد أهداها للنبي محمد ، وأصبحت احدى زوجاته . وكانت ريني ترغب في عدم ترك اختها ، وكانت تلك هي فرصتها عندما وعدها بذلك القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدماتها في سبيل الاستيلاء على المدينة . وهكذا فتح هذا النصر الطريق الى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا اول كتائب للعدو وأبادوها عند دير الزجاج (الهانطون اليونانية)[٧٢] الذي يقع على مسافة نحو تسعة أميال جنوبي العاصمة (الاسكندرية) . وكان برفقة الكتيبة البيزنطية مجموعة من الرهائن العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون أثناء غارة على طبرية والساحل السوري . وما لبث ان تولى حكم الاسكندرية رسطوليس الذي ذبح أباه المقوقس بسبب استسلامه لعمرو ، واعتقد أن باستطاعته استخدام أولئك الأسرى كرهائن في المفاوضات الاخيرة مع العرب ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم في مدينة الهانطون ، ولم يكن أمام رسطوليس سوى خوض غمار الحرب لانقاذ المدينة وقد انعقدت آماله على وصول الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة سريعة الارتباك لدرجة لم يكن بوسعها الانضمام الى البيزنطيين اخوتها في الدين دفاعا عن الاسكندرية . ويروي النويري قصة انفتاح ثغرة في تلك الاثناء في الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شرحبيل[٧٣] ، وهو كاتب رسول الله ومن صحابته وفي تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله الى اعالي البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائدة الى ديارها عند سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد (بن الوليد) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين قدرها مائة الف دينار . وفي تلك الاثناء عرضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام اودفع الجزية بواقع اربعة دنانير للفرد الواحد . وكلف احد الاقباط ويدعي اشعيا بن شامس[٧٤] بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربي يدعي قيس بن سعد . ويختتم النويري قصته بمأساة

(٦٩) وردت الاشارة باختصار الى الدولة الأيوبية في الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ، ونجد معلومات أوفر في نفس الجزء عن صلاح الدين والدولة الأيوبية . أنظر ص ٦٢ ـ ٧٤ .

(٧٠) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي ، المؤرخ المعروف للفتوحات العربية المبكرة . وقد عاش فيما بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد [القرنان الثاني والثالث الهجريان] . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٠ .

(٧١) الالمام ، جـ ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

(٧٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(٧٣) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٥٣ .

(٧٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .

مواطن ثري يدعي تولين[٧٥] اشتهر بالبخل ، وأراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلعنه قيس قائلا : « فوالله ! مامضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر أن أغنامه هلكت جميعا ، وبساتينه قد يبست ودياره وأملاكه قد تهدمت ، وأمواله قد مضت »[٧٦]

ثم مالبث أن توافدت الوفود من المدن الاخرى في مصر السفلى لاعلان خضوعها للمنتصرين بمحض رغبتها ، ملتمسة الامان . وكانت رشيد وفوة والمحلة وكل مديرية البحيرة[٧٧] ممثلة في تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فقط في ميناء دمياط البحري الهام عند فم فرع النيل الشرقي . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفي . فأرسل خالد فصيلة مكونة من اربعين فارسا بقيادة المقداد بن الاسود للتفاوض في امر استسلام المدينة . ولكن [illegible]رك رفض النصيحة بالاستسلام التي كان قد اسداها له وزيره الدارجان[٧٨] الذي أعدمه . وبذلك أثار حنق ابن الدارجان الذي تآمر عن طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة في السور . ويمكن تلخيص مشاهد الأحداث التالية في تلك الأعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتي تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام . وفي المرحلة التالية من الصراع سقط أحب أبناء الهاموك اليه ويدعي شطا[٧٩] من فوق ظهر جواده وفقد الوعي . وعندما ثاب الى رشده روى رؤ يا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب في زي اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه الى الاسلام . وبذلك عبر الى الجانب الاسلامي ، ثم مالبث أن حذا الوالد المؤمن حذو ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم أعقب ذلك بقصة أخرى روائية تدور حول مدينة تنيس[٨٠] عاصمة مصر القديمة والتي كان يحكمها عربي نصراني يدعي أبا ثور من قبيلة بني غسان الذين تحصنوا في خنادق على جزر بحيرة المنزلة . فقرر المعتنقون للدين الجديد في دمياط ارسال وفد تبشيري لدعوة ابي ثور واتباعه للدخول في دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد بن عامر ، ذلك العربي المقيم في دمياط وأحد رفاق الرسول . وانتهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التي قام بها المبشرون المسلمون والتي عددها النويري (في كتابه) . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، اصبح لزاما استخدام القوة لارغام ابي ثور على دخول الاسلام . وأثناء العمليات الحربية التي تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤ يا تتعلق بالفردوس الاسلامي الذي يصفه النويري وصفا حيا . ولكن في النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح في الافق التعزيزات العربية التي تستهدف ازعاج المنتصر واحباط جهوده . فأنزلت الهزيمة بأبي ثور واقتيد اسيرا ثم اطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا في العام السادس والعشرين بعد الهجرة ، اي في عام ٦٤٧ ميلادية . ومن الاهمية بمكان ان نعرف ان شطا

---

(٧٥) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٥٨ .
(٧٦) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٥٨ - ٥٩ .
(٧٧) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٦٧ .
(٧٨) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٦٨ .
(٧٩) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٧٣ .
(٨٠) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص ٧٥ وما يليها .

دفن في نفس الموقع الذي سقط فيه ، واعتبرت مقبرته من اقدس الاضرحة في الاسلام . واستمر الحجاج الاتقياء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف « كتاب الالمام »[٨١] .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ما وراء المعارك والانتصارات . فيزودنا المؤلف في ثنايا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لاسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنيعة ، الى جانب التفاصيل المتعلقة بعرش ابى ثور والايقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النويرى كان يتنقل في سرده للاحداث برفق وهدوء ، باحثا عن الفرص التي يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولو انه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات اليمة احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما في هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة في قبضة ابي طاهر صاحب البحرين[٨٢] عام ٣٠٧هـ/ ٩١٩م . وليس هناك مثيل للاهوال التي صاحبت تلك الغزوة في الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تمييز ، والقي بجثثهم في بئر زمزم المقدسة حتى امتلأت الى آخرها بالموتى وأجساد أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الفا ، بخلاف النساء والاطفال الذين اقتيدوا كرقيق وقد أعمل السلب والنهب في الكعبة ، وقلع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنتين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج أطهر منطقة في الاسلام في حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الأخرى التي طاولت مابلغه خطر انتهاك القرامطة لحرمة المقدسات هي غزو التتر لبغداد عام ١٢٥٨م[٨٣] تحت قيادة هلاكو خان (هولاكو خان) . وقد وقع المستعصم بالله أخر خلفاء بني العباس تحت حوافر خيول التتار حتى تمزقت اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلائها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من أقاربه . وحمل الف من العذاري بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو في اعمال الذبح في الاهالي لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد في اليوم الواحد ، وبذلك اصبح مجموع القتلى في النهاية ٧٠٠,٠٠٠ ملأت جثثهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشي وباء الطاعون في المدينة بل تعدي انتشاره حدودها .

وفي مواجهة هذه المآسي الفظيعة التي كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥م ، جد النويري في البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكرة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويزخر كتابه باشارات الى الانتصارات الاولى في صدر الاسلام في منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم في شمال افريقية كما أسلفنا . فهو يمجد دفاع المسلمين البطولي ضد استعادة المسيحيين لأراضيهم في شبه الجزيرة الايبرية ، مع ان الحرب (بين الطرفين) بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابي الحسن المريني[٨٤] ، الذي هزم هزيمة منكرة خارج مدينة

---

(٨١) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٩١ .
(٨٢) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص١٢ وما يليها .
(٨٣) نفس المرجع ، جـ٢ ، ص٢٢٢ وما يليها .
(٨٤) اسمه بالكامل حسبما ورد في الوثائق هو « أبو الحسن بن علي يعقوب بن العباس المريني » . أنظر نفس المرجع ، جـ٣ ، ص١٩٥ . وفيما يتعلق بالحرب كلها ، أنظر جـ٣ ، ص١٨٣ وما يليها .

طريف (بالاندلس) ويحتمل أن تكون هذه هي معركة ريوسا لادو Rio Salado عام ١٣٤٠ م التي لم يرد ذكرها (في الكتاب) عن عمد ، وكان المنتصر في ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى(٨٥) المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ ـ ١٣٥٧م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالي متحالفا مع قشتالة التي حارب ملكها الفنسو الحادي عشر صراحة الى جانبه والذي يحمل نفس الاسم ومع ذلك سرعان ما انتقم السلطان ابن الاحمر(٨٦) لهذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras (٨٧)والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨هـ/١٣٦٦م ، اي بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين القي بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابي الحسن مرة اخرى في ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . واذا اخذنا بما قاله ابن الاحمر وروايات النويري ، لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، الى مدن جيان(٨٨) Jaen (٨٨) (جنوب الاندلس) وابده(٨٩) (شمال شرقي جيان) واطريره(٩٠) Utrera (جنوب الاندلس) ، والى قرى وقلاع أخرى بلغ مجموعها ثمانية وأربعين(٩١) وبهذه المناسبة يقتبس النويري دليلا من الوثائق يتضمن خطابين(٩٢) متبادلين بين ابي الحسن المويني وعدوه الفونس (الفونسو) ، كما يتضمن رسالة(٩٣) تحوي المزيد من التفصيلات موجهة من ابن الأحمر الى سلطان فاس المريني في شمال افريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على القند(٩٤) ملك النصارى » .

وان ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة أمثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويري بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر « كتاب الالمام » باشارات الى معارك اخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتي ربما يكون سردها أمرا مملا عديم الفائدة . ومع ذلك ثمة أمر واحد يبرز بوضوح في خضم التكرار في هذا الموضوع ، الا وهو المادة الوفيرة التي حشدها المؤلف اثناء حديثه عن أدوات الحرب والقتال عند المسلمين ، وقد رأينا أنه جدير بفهرس خاص به(٩٥) . هذا ، بالاضافة الى تكتيكات واستراتيجية المقاتلين المسلمين وأن هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التي يصعب تقديرها بالنسبة للطالب الذي يدرس الفنون الحربية الاسلامية في العصور الوسطى(٩٦) .

(٨٥) نفس المرجع ، ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ وحاشية رقم ٥ .
(٨٦) الاسم بالكامل هو : أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب ابن الأحمر . أنظر نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ٣١٨ . أنظر أيضا جـ ٥ ، ص ٣١٧ ح و ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الغني بالله سلطان غرناطة .
(٨٧) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٩٨ وما يليها .
(٨٨) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٩ وحاشية رقم ٥ .
(٨٩) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٢٥ وحاشية رقم ١ .
(٩٠) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٢٧ وحاشية رقم ١ .
(٩١) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .
(٩٢) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٧ . وليس بوسعنا تتبع أصول تلك الخطابات في المصادر المنشورة .
(٩٣) نفس المرجع ، جـ ٥ ، ص ٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة بأسلوب غريب لم يتسن تتبعه في المصادر المنشورة . وليس معروفا من أين حصل النويري على تلك الخطابات .
(٩٤) أي « الكونت ملك المسيحيين » . ولقب « قند » مشتق من الكلمة الاسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو أحد أشراف مملكة قشتالة في عصر بطرس الرهيب (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩ م) . أنظر جـ ٥ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .
(٩٥) نفس المرجع ، جـ ٧ ، الفهرس رقم ٨ .
(٩٦) عند عقد المقارنة بين ما خلفه النويري وبين الدراسات المتعلقة بفن الحرب والقتال في الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تأليف شارل اومان Charles Oman وج . كيهلر G.Khler و م . دلبريك M.Delpruce و ف . لوت F.Lot .

وتبدو قدرة النويري الحقيقية « كمؤرخ »[٩٧] بوضوح أكثر في المواضيع التي يناقش فيها أحداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أي شي أخر . هذا ، وبدون التعمق والاسهاب في موضوع الاسكندرية الذي أرجأناه للفصل التالي ، فاننا يجب أن نعتبر تناوله (لدولة) المماليك البحرية[٩٨] اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٦٧م) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويري نفسه وهو الاشرف شعبان) ١٣٦٣ - ١٣٧٦م) ، بمثابة اضافة مفيدة الى مؤلفات المقريزي[٩٩] العظيمة والى مدرسته ، ولو أن ما أورده في هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التي يرويها النويري ، أنها لاتظهر في كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التي قام بها أمراء المماليك[١٠٠] في عصره ، ومكانتهم في الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان في الاسكندرية[١٠١] ، الذي رآه كشاهد عيان ، لهو قطعة فنية حية تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتمالات البطلمية في نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويري أقواله ، في كثير من الأحيان ، بالوثائق الأصلية . وكانت المقتطفات الشعرية هي الأمر المفضل عنده ، متمشيا في ذلك مع ميوله الأدبية . ورغما عن ذلك ، نجده في احدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية بأكملها ، وهي تعتبر من اهم الفرمانات او المراسيم الرسمية[١٠٢] لمصر المملوكية . وقد اشار كبار كتاب الحوليات في اخريات العصور الوسطى الى هذا المرسوم بايجاز[١٠٣] . ولكننا لم نعثر عليه كاملا الا في « كتاب الالمام » . وكان النويري يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م ، توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة (١٣٠٩ - ١٣٤٠م) الجديرة بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستوري شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج تقريبا كل ناحية من نواحي الاقتصاد والمجتمع المصري . وقد صدر المرسوم بعد اجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادل للضريبة على الارض في سجل يعرف باسم « الروك الناصري » .[١٠٤] ومع ان نص المرسوم كما هو موجود في النسخ الخطية توجد به فجوات مفقودة ، الا ان الوثيقة في معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل الوطنية التي سعى السلطان الى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التي يمجد فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة الناصر ، يذكرون الدوافع الخيرة التي

---

(٩٧) تعني علامات التنصيص تحفظات حول وصف النويري كمؤرخ .

(٩٨) نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٨٦ وما يليها و ٢١٢ وما يليها و جـ ٤ ، ص ٧٥ وما يليها وجـ ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨٠ - ٣٨١ وجـ ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .

(٩٩) أهم مؤلفاته هو كتاب السلوك في أربعة أجزاء تشتمل على عدة أقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة واتمه سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٣) .

(١٠٠) الالمام ، جـ ٧ ، فهرس رقم ١ . أنظر أيضا الحاشية التالية .

(١٠١) نفس المرجع ، جـ ٧ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، جـ ٦ ، ص ١ - ٤ .

(١٠٢) نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ١٤٦ - ١٥٤ .

(١٠٣) أنظر على سبيل المثال ، السلوك للمقريزي ، جـ ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، أبو المحاسن بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، جـ ٩ ، ص ٤٩ - ٥٠ ، ابن ايبك الداواداري : كنز الدرر (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٨٦ .

(١٠٤) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضي بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد خصص المقريزي لهذه المسألة جانبا من خططه (طبعة القاهرة في أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ) ، جـ ١ ، ص ١٤١ - ١٤٧ . وجاء قبله روك صلاح الدين الذي جمعه ابن مماتي (كتاب قوانين الدواوين ، نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .

دفعت السلطان الى منحه لرعاياه ، بهدف ازالة مساوىء تشريع سابق ، ومؤكدا لهم أمنهم وأمانهم . وكل مانستطيع أن نفعله هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدولة المواد التي اشتملت عليها جدولة تحليلية .

١ ـ اسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة الى سواحل القاهرة واعمالها ، ويمنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ ـ ابطال نصف ضريبة السمسرة التي يؤديها جميع السماسرة والمنادين .

٣ ـ ابطال المقدمين ومقرراتهم ومايضم الى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديمها لبغالهم ودوابهم .

٤ ـ ابطال رسل الدولة والمترددين على البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا .

٥ ـ نواب الامراء الذين يقرونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على الوالى الذي يتمتع بكافة الصلاحيات التصدي لازالة التعدي على حقوق الافراد .

٦ ـ المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبوا الجرائم الذين يهربون الى بلد غير بلدهم يجب أن يلقى ولاة تلك الناحية ومشايخها وخفراؤها القبض عليهم ، واعادتهم الى بلادهم الاصلية او تسليمهم الى والى الحرب في تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام « سيوفنا » ضدهم بالتوسيط والشنق والتسمير على نخيل تلك البلدة .

٧ ـ الفلاحون المنتجعون من بلدة الى اخرى بسبب القحط ، والذين ياويهم الاهالي يستطيعون البقاء في تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون الى بلادهم الأصلية .

٨ ـ لايمكن احد من الولادة ولانوابهم ولا المتحدثين عنهم ولا الكتبة ولا الجباة من جباية رسم استثنائى مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ ـ ابطال حقوق السجون ومقرراتها وضمانها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ ـ لاتجبى أي مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولاتفرض اي رسوم على تسليف الادوات الزراعية ، او على القش والابقار والخولة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطعها بعمل مايجب عمله من غير رجوع الى العوائد القديمة .

١١ ـ ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أي شيء آخر[١٠٥] .

١٢ ـ ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذي كان يستأدي وقت حركات الجيوش .

---

(١٠٥) يبدو أن هذه الأشياء كانت تمنح عينا بدلا من الدفع النقدي للضرائب .

١٣ ـ لايؤخذ مقرر ملاهي لمن يعمل فرحا ومن أعرس او كتب كتابه او كان عنده ختان . ولايطلب الا من كان عنده احد من الغواني والملاهي .

١٤ ـ المسامحة بثمن العبي التي كانت تقررت على عامة الناس .

١٥ ـ ابطال المقرر من التبن والقش لمعاصر الأقصاب لمدة عام ، ويسمح بشراء التبن بثمنه ورضى أصحابه .

١٦ ـ ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لايعود أحد من الأمراء وأرباب الجهات يحمي مركبا ولايستأدي من الحماية حقا (وهذا يعني توفير الحماية بدون أجر) . ولايتعرض أحد الى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ ـ لايطالب الحي عن الميت ، ولا المقيم عن النازح ، ولا الحاضر عن الغائب ، مالم يكن ضامنا او كفيلا او ملتزما .

١٨ ـ المسامحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقي في بلادهم من الخراج والضمان والى آخر مغل سنة ٧١٤هـ .

١٩ ـ اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القدوم عند انتقالات الاقطاعات في سنة الروك .

٢٠ ـ ابطال عداد النحل حسب مايشهد به الديوان .

٢١ ـ ابطال زكاة الرحالة المسلمين بالديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، الا على حكم التصقيع .

٢٢ ـ ابطال جميع البدول من الولاة والنظار والمستوفين وارباب الوظائف جميعا اعتبارا من استقبال شهر صفر سنة ٧١٦هـ . :*

وتنص الخاتمة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم في القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والامراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة ومحصلي الضرائب وجميع سلطات الدولة ملزمون بتنفيذ نصوص هذا الفرمان حرفيا دون تفسير او تبديل . ويحمل الفرمان في بدايته توقيع السلطان بما يتفق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في العصور الوسطى . وينتهي بتاريخ اصداره في ١٨ من ذي الحجة عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م .

ويحتمل ان يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالحريات في مصر ابان العصور الوسطى اثارة للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة « العهد الاعظم » Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم ينتزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو ان (الميثاق المذكور) كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامة الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظمى في اقتصاد مصر ، ولابد انها هيأت

* رأينا الالتزام ، قدر الاستطاعة ، بنص المرسوم وحرفيته كما ورد في الالمام (المترجم) .

(فرص) العدالة الاجتماعية للرجل العادي . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر في اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويري الذي ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .

الفصل الرابع

الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس فى نيتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، فى دراستنا المستفيضة بعنوان « الحروب الصليبية فى او اخر العصور الوسطى »(١٠٦) . وهدفنا هنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذى سجله النويرى كشاهد عيان ، او ذلك الذى جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التى سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التى قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته فى مجالات عديدة ليس هناك اى رابطة تجمع بينها . لذلك ، فان رواياته تحتاج الى جهد لتنسيقها ، وهو ما نأمل تحقيقه فى هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تدوين الاحداث المشئومة « التى قدر » ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التى ترجع الى او اخر العصور الوسطى ، قد افسحت مكانا مناسبا لتلك الاحداث ، الا ان أيا منها لايستطيع مباراة « كتاب الالمام » فيما يتعلق بحجم المعلومات التى قدمها خاصة بتفاصيل القصة .

وسيظل النويرى هو مصدرنا الرئيسى الموثوق به فى هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

ووفقا لرواية المؤلف ، فإن قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التى وجهها عدد من الشيوخ الابرار فى أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي(١٠٧) . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التى تنبأوابها الى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادى [او اخر القرن السابع الهجرى] فى بلاد مابين النهرين ، والتى سجلها شخص يـدعى الباجربقى(١٠٨) فى ملحمته التى نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى النويرى اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التى سوف تحل بها . وهى عبارة عن منامات

(١٠٦) الكتاب طبع لندن (نشر Methuen & Co. Ltd.) سنة ١٩٣٨ . وفيه قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥ - ٣٧٨ والحواشي . وعلى ذلك ليس ثمة ما يدعو الى اجمالها هنا .

(١٠٧) Et. Combe, ''Les presages annencant la Croisade de Pierre de Lusignan et la cause de ceete attaque,'' Bulletin de la Societe Reyal d'Archeolagie d'Alexandrie, annee 1948, No. 37.

(١٠٨) الالمام ، ج١ ، ص١٠٦ وما يليها . وقد اقتبس النويري تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتي كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجر بقي تحت اسم بجربقي وبجربقة ، ولعله خطأ مطبعي . انظر كتاب العبر (طبعة بيروت ، سنة ١٩٦١) ، ج١ ، ص٦٠٥ , ٦٠٨ . انظر أيضا المقريزي : السلوك (القاهرة ١٩٤١) ، ج ٢ ، قسم١ ، ص١٦٧ح ٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص٢٦٢ . ويظهر اسم الباجر بقي أيضا في مؤلفي ابن كثير وابن شاكر . انظر الالمام ، ج١ ، ص١٠٧ ح ١ . والباجر بقي من مواطني قرية بجر بقة ، وهي تقع بين البقعاء ونصيبين فيما بين النهرين ، وذلك وفقا لمعجم البلدان لياقوت ، ج ١ ، ص١١٥ . انظر الالمام جـ ١ ، ص١٠٦ - ١٠٧ جـ٦ .

تراءت لأربعة من مواطنى[١٠٩] الاسكندرية ، بالاضافة الى منام خامس يذكر ان مصدره دمشقى[١١٠] ومنذ البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا ان سقوط مدينته العظيمة لايعزى الى بسالة غزاتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كعقاب لخطايا سكانها وآثامهم ومع ذلك فهو لايجد من الكلمات مايكفى ليسب غازيها بطرس الاول لوزجنان الذى يصفه بانه كلب لعين ولص[١١١] وجبان ، ركن الى الفرار بما سلبه خوفا من مواجهة امدادات السلطان التى كانت فى طريقها الى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه بينهم « **كراعي قردة فى جزيرة** »[١١٢] .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجة كانت امرا لامرد له ولا سبيل الى مقاومته ، الا ان بعض الظروف هى التى مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه . وهنا يشرع النويرى فى ذكر سبعة أسباب أدت الى الكارثة ، يمكن ترتيبها زمنيا كالآتي[١١٣] :

السبب الاول : فى عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢ ـ ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ ـ ١٣٥٤ م) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الأقباط من دواوين الحكومة مالم يرتد وا عن دينهم ويعتنقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، انه نص فى نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زي خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلا من الجياد . وان تطبيق هذه الاجراءات المهينة في كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين أن يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد اومن الاجانب الذين يقيمون فى كلتا العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب الى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعودة الى بلاد الروم . وقد أثار هذا الإجراء غضب الملك القبرصي الذى بدأ نتيجة لذلك رحلته الى الغرب بحثا عن مجندين للهجوم على الاسكندرية[١١٤]

السبب الثانى : يقال ان بطرس الاول لوزجنان عند اعتلائه العرش (١٣٥٩ ـ ١٣٦٩ م) ، طلب من السلطان الناصر حسن اثناء ولايته الثانية (٧٥٥ ـ ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ ـ ١٣٦١ م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تتويجه بالجلوس على عمود معين فى تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فان بطرس الذى أثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته[١١٥]

السبب الثالث : فى شوال ٧٥٥ هـ (اكتوبر ـ نوفمبر ١٣٥٤ م) رست سفينة محملة بقراصنة الفرنجة فى ميناء الاسكندرية ، وسببت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين الى

(١٠٩) الالمام ، ج ١ ، ص١٠١ وما يليها . وهؤلاء هم أبو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصري ، وأبو عبد الله محمد المؤدب ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازي المقيم الاسكندرية .

(١١٠) نفس المرجع ، ج١ ، ص١٠٥ ـ ١٠٦ هو ريحاني الحبشي الذي توجه الى القاهرة بعد المنام الذي تراءى له وهو نائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الغزوة . وهناك اختلط بالفرنجة الذين كان يتقن لغتهم ، وتمكن من الوصول الى بطانة الملك بطرس وسرق مهمازه الذهبي وباعه فيها بعد بمبلغ ثلاثمائة دينار .

(١١١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص٢ ـ ٣ .

(١١٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص١١٣ .

(١١٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص٩٢ ـ ١١٠ .

(١١٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص٩٢ وما يليها .

(١١٥) نفس المرجع ، ج٢ ، ص٩٦ ـ ٩٧ .

المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون الى مؤن ومياه عذبة بادر النائب بارسالها اليهم . ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية فى مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت أخبار هذه القصة الى بطرس الذى أدرك أن مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها عنوة(١١٦)

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت بأسر عدد من المسلمين وفرار المغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية(١١٧)

السبب الخامس : فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ (١١ يونيو ١٣٦٣ م) رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطىء أبى قيرمن ضواحى الاسكندرية . وقبضوا على ستة وستين رجلا وامراة وطفلا من المسلمين ، ثم فروا بهم الى صيدا حيث اطلق سراحهم بعد ان افتداهم المسلمون . وقد عززت هذه الحادثة ، مرة أخرى ، موقف الحاكم القبرصى بالنسبة لمشروعه ضد الاسكندرية(١١٨) .

السبب السادس : اعقب تلك الغارة الفاشلة التى قامت بها ست سفن على ابى قيرنفسها ، غارة اخرى على مدينة رشيد الآهلة بالسكان . وبعد رسو السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامى ، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من رجالهم فى هذا الصدام . فكان لابد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم تتمثل فى غزو الاسكندرية (١١٩) .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التى راح ضحيتها البنادقة المقيمون فى الاسكندرية على ايدى العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر . ووضعت البندقية اسطولها تحت تصرف بطرس الاول فى مشروعه المزمع القيام به ضد الاسكندرية . وفى نفس الوقت القى البابا فى روما بثقله الى جانب قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الاوروبية والامراء الاوروبيين الذين شاركوا فى غزو الاسكندرية(١٢٠) .

ومن خلال عرض النويرى للاسباب وانعكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلا منهما كان يتابع الموقف فى كل من قبرص والاسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة(١٢١) بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة فى قبرص . ولكن كل ما استطاع القيام به هو تعلية سور المدينة من جهة الباب الاخضر الذى يواجه الميناء الغربى . كما نبه يلبغا الخاسكى مقدم جيوش المماليك فى القاهرة ، ملتمسا ارسال العون والامدادات . ولكن توسلاته لم تجد أذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات فى القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص [على الاسكندرية] . وساد الاعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى حتى اقل العمليات الحربية ضد مماليك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان الملك القبرصى على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق اولئك الذين أخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات

(١١٦) نفس المرجع ، جـ٢ ص ٩٧ ومايليها .
(١١٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص١٠٣ وما يليها
(١١٨) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .
(١١٩) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص١٠٧ ـ ١٠٩ .
(١٢٠) نفس المرجع ، ج٢ ، ص ١٠٩ وما يليها .
(١٢١) هو وقتذاك زين الدين خالد ، وهو امير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع ، ج٢ ص ١١١ .

بأنها كانت تتكون اساسا من مجموعة صغيرة من الجند تتبختر خارج أسوار المدينة بسيوفها المرصعة بالجواهر ، وعمائمها الحريرية الجذابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية(١٢٢) . وحدث أيضا أن نائب السلطان كان متغيبا عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائبا عنها بمكة بسبب الحج فى ذلك الوقت . وقد بعثت القاهرة بأمير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله(١٢٣) . وفضلا عن ذلك ، يقال ان كاتب الديوان بالاسكندرية ويدعى شمس الدين ابن غراب كان متآمرا مع السلطات القبرصية(١٢٤) . وفى زحمة تلك الظروف حددت ساعة الصفر ، عندما يصل فيضان النيل الى اعلا منسوب له ، وتفصل الدلتابين الاسكندرية والقاهرة بعد ان تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب امرا صعبا متعذرا . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهيأ للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعدا ، يبدو ان ما كتبه النويرى عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم الى شقين . ففى المقام الاول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الاسوار وعلى الشاطىء عند مرأى الاسطول المسيحى ، وخطاب اللوم الذى تبع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويرى هناك ، أيضا ، بين موجات الفارين بعد دخول الاعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفا حيا لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يختفى مع الجماهير . اما الشق الثانى الذى اسهم به [فى تسجيل تاريخ الحملة المذكورة] ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الفارين المشئوم فيها وراء بوابات المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التى رآها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . أما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتى اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلوماته عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد آثروا البقاء داخل أسوارها ، وبذلك أصبحت الصورة [التى زودنا بها] عن المذبحة واعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشىء من التفصيل تلك الروايات الممتعة التى تنبض بالحياة فقد اعتقد أهل الاسكندرية فى بادىء الأمر ، أن الاسطول القادم عبارة عن مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالمعتاد . ولذلك اسرعوا الى الشاطىء ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة المتجولون وبائعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم وبضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الاسعار وفقا للطريقة الشرقية تدوى فى كل مكان . ولم يكترث الناس بالكوارث الوشيكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحا كاملا ينزلون بسيوفهم المسلولة التى استخدموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفى هذه اللحظة أسرعوا يهرولون فى اتجاه البوابات طلبا للأمان وراء أسوار المدينة . وزاد الطين بلة والحالة سوءا ، ظهور فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية فى محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . اذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم تداس بالأقدام وتسحقها حوافر الخيل فوق الرمال .

وكان النائب الجديد [للمدينة جنغرا ممزقا بين رأيين ثار حولهما الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . وأحد الرأيين تقدم به تاجر مغربى نصح بأن يصدر النائب أوامره الى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطىء والقتال من

---

(١٢٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(١٢٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .

(١٢٤) نفس المرجع ، ج٢ ، ص ١٥٨ .

داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما الرأى الآخر فقد وصم ذلك المسلك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالحيلولة بينه وبين النزول الى الشاطىء . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأربطة فى الجبانات المقامة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا ـ فى الحقيقة ـ راغبين فى التخلى عن احيائهم للعدو . وانحاز جنغرا الذى كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانبته الحكمة .

ومن ثم ، أبيدت كتيبة مغربية فى محاولة متهورة لاشعال النيران فى خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب بالهزيمة . وعندما وخزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خائفة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والخراب . اما جنغرا نفسه فقد جرح فى القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر الى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضا باسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة عن تلك الشجاعة اليائسة . اذ انبرى جزار يدعى محمد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بنصله الحاد ، وأخذ يعمل القتل فى الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفال الصفوف المسيحية بسيف مسلول فى محاولة لاعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا(١٢٥) . وفى جزيرة فاروس دافع حرس رباط [الشيخ محمد] ابن سلام(١٢٦) عن مبناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تسليحا تاما . وقد تمكنوا من صدهم من فوق سطح المبنى ولكنهم ذبحوا أخيرا وقيل أن دماءهم سالت في جداول خلال المزاريب (الميازيب) ، أما أولئك الذين شاهدوا بقايا المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، فقد صعقوا عند رؤية كتل الدم المتجمد التى سدت تلك المزاريب . كما أن جثث الشهداء المذبوحين ظلت على السطح حتى حللتها شمس مصر . ثم جمعت معا ودفنت فى حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب(١٢٧) .

اما الصورة التالية فهى تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . ففى البداية بدت المدينة منيعة لاترام بأسوارها العالية المزدوجة وأبراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الاخضر المنيع ، لأن المهاجمين لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانبا من السور خاليا من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . ويمدنا النويرى بتفسير لهذه الثغرة فى الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الأخضر حيل بينهم وبين الوصول الى هذا القسم من السور فوق باب البحر وباب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج ضرغام الفرير . وزيادة على ذلك ، فان الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكنا فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة فى انتظار تفريغها . وبذلك كانت منطقة الديوان مغلقة من الداخل للمحافظة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فان السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعا من الداخل . وقيل ان اغلاق باب الديوان فى وجه الدفاع كان عملا من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيها بعد بان الملك بطرس

(١٢٥) نفس المرجع، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . واهب هذا المبنى ثري من مواطني المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد دمر الصليبيين بابه وشبابيكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما أشعلوا النيران في سقفه المزخرف . وقد استعاضها نفس الرجل في ٧١١ هـ / ١٣٦٩ م ، ولكنه أقبى سقف ديوانه بالحجارة حتى لا يتأثر بالنار .

(١٢٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

[لوسنيان] قد رشاه وعاملا آخر من عمال المماليك يدعى شمس الدين بن ابى عذيبة . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الاجانب المقيمين [فى الاسكندرية] من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيها بعد ثمنا لهذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب [باب رشيد] .

وعلى أية حال ، فان اكتشاف السور الخالى من الدفاع ، قد أعطى الصليبيين فرصتهم الذهبية . وفي غمرة الفرح بدأوا فى اعداد السلالم المفصلة التى تسلقوا عليها السور بأمان ، بينما أشعل الآخرون النار فى باب الديوان . وفى ذهول حملق الناس الذين كانوا على الجانب الآخرمن قلعة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز ، وأدركوا ان اليوم قد انتهى [فى غير صالحهم] . وهبط المسيحيون الى داخل الديوان ، وفتحوا بابه المحترق على مصراعيه ، وتدفق المهاجمون داخل المدينة .

وكان الدمار الذى اصاب الجانب الاسلامى مخيفا ورهيبا . فقد فر المواطنون نحو البوابات البرية فى محاولة للهرب طلبا للأمان . وقد اعطى النويرى وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان من بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس آثروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الارض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التى تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب فى كيس نقود ، ثم انضم الى الجموع المتزاحمة عبر باب رشيد . واثناء صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط الهائل للكتل البشرية التى تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التى تمكنت من الهرب الالتجاء الى القرى المجاورة مثل البسلقون والكريون بمديرية البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد فى الحقول المكشوفة . اذ سلبهم مامعهم البدو وقطاع الطرق من القبائل العربية التى تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يختفى النويرى من مسرح الصراع والمذبحة داخل المدينة . ويحتمل ان يكون قد عاد الى النويرة قريته الاصلية فى مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة تم اثناءها طرد الصليبيين الى البحر عندما عاد هو ثانية الى الاسكندرية . ولا نعرف على وجه التحديدتاريخ عودته ليواجه مصير المدينة المفجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات من أولئك الذين بقوا فى المدينة ، وظلوا على قيد الحياة بمعجزة بعد الاحتلال المسيحى لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن أحداث تلك الايام القليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العبث ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التى أخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التى نهبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التى احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمد نا النويرى بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التى يجب أن نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة الفظيعة التى حلت بالاسكندرية . وان كل ما تمكن الغزاة من وضع أيديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ما خف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والأقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل والحاصلات الهندية ـ كل هذا أخذه الصليبيون الى أسطولهم . واستخدمت الجمال والخيول والبغال والحمير الموجودة فى المدينة فى نقل تلك الغنائم الهائلة . كما سخروا الرجال والنساء لينضموا هم أيضا الى تلك الدواب فى عملية النقل . وعندما تمت السخرة ، صدر الأمر بدخولهم فى جوف السفن لنقلهم عبر البحر

كأسرى وعبيد المستقبل . وفيها يتعلق بالحيوانات ، فبمجرد انتهاء مهمتها لم يعد لها ادنى فائدة بالنسبة لهم ، لأن السفن كانت قد بلغت اقصى حمولتها ، طعنها المحاربون المتدينون بسيوفهم وحرابهم كما كسروا عظام ارجلها الرفيعة بمنتهى البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او فى طريقها للموت فى الشمس الحارقة فوق الشاطىء الرملى ، حتى جاء المسلمون فأحرقوا جيفها بعد استعادة المدينة . كما اشعل الصليبيون النيران فى المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المبانى .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم فى مجموعات من فجوة فى مخبا سرى ، تحدث الى النويرى عن الأسلوب الذى اتبعوه فى اشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بدهان احمر ، ومن الصعب التثبت ان كانت تتكون من القطران (القار) والكبريت . وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مس اللهب هذه الابواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات اخرى من المسيحيين حملت أيضا معها حلقات غمست فى الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت واطلقت الى اعلا نحو أسقف المبانى الخشبية لتبدأ حرائق اخرى ، بهدف التأكد من اتلاف المكان بصفة نهائية . وكانت بعض المبانى آية فى الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالتجار المسلمين وتلك التي كانت من أملاك المسيحيين . ومن بين الفنادق والنزل التي دمروها ، عدد النويري تلك التي تخص القطلانيين والجنوية وأهالى مرسيليا . كما جردت المساجد والأضرحة من كل عمل فنى يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر والاحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها . اما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالتنقيب فيها بشكل منتظم مجموعات أصغر من تلك العصابات من رماة السهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل نفائسهم حتى لايتعرضوا للموت . وفى هذا لم ينج مسلم أو مسيحى قبطى من أهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة لسيدة قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان قيما على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب [التى رسمتها لهم] أن تعفيها من مضايقة أفراد احدى هذه العصابات الذين طلبوا اليها ان تسلمهم كل ذهبها وفضتها . ومع ذلك فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذى أشعلوه بتسليمهم الأوانى الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ويخبرنا النويرى ، أيضا ، أن سبعين سفينة [من السفن الصليبية] قد حملت اكثر من طاقتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا الى القاء جزء من حمولتها فى البحر المتوسط بالقرب من شاطىء ابى قير شرقى الاسكندرية لتفادى غرقها أو تقدمها البطىء الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة فى الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما أنهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التى كانوا قد سحبوها الى الشاطىء بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبنى الوحيد الذى لوحظ بقاؤه سالما هو الترسانة التى احتوت مخازن الذخيرة وبها ستون ألف سهم ، وكميات هائلة من القسى ، والسيوف ، والحراب ، والحلل الحربية ، والدروع ، وأجهزة المدفعية والمواد الملتهبة وجميع المعدات الحربية وآلات الحصار وحدثت معجزة نجاتها من النهب والتدمير التامين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقدوا من مظهره انه قد يكون أحد أبواب المدينة بسبب حجمه الضخم اكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسوه بسوء . ولكن جميع

المبانى الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، قد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك ، فمما يدعو الى العجب أن عصابات اخرى [من الفرنج] أشعلت النيران فى عدد من الأبواب البرية ومن بينها باب سدرة ، وهو خطأ تكتيكى ، اذ زاد من فرص دخول قوات السلطان الى المدينة والقادمة اليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سخف وغباء ، أنه بدون الأبواب تصبح المدينة مفتوحة أمامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، أملا ذهب أدراج الرياح ، لأن المصريين أعادوا ترميم الأبواب بسرعة . وبعدأن زادت يقظتهم وقوى حرصهم ، لم يجرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماءه الهلع لما رأوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجال والنساء والاطفال مبعثرة فى الشوارع دون اعتبار للسن أو الجنس . كما دمرت أحياء بأكملها . ولم يبق أى مبنى هام ، دون أن يمس سوى الترسانة الحربية على مايبدو . فبدت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعثر الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك ان مثل هذا الدمار الفظيع وتلك المذبحة الجماعية يمكن أن تتم اثناء احتلال دام ثمانية أيام . ولم تكن الاسكندرية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لمثل تلك الكوارث والبلايا التى لم تفق منها حتى العصر الحديث .

ويمدنا النويري ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التي دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس المنسحب علي سفنه ، وذلك قبل ابحاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين في المدينة الي دمنهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم علي تبادل المسيحيين بأسري المسلمين علي السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحي أن يبحر بسرعة بأسلابه ومغانمه طلبا للأمان في عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس الي قبرص ، وقد داعبه الأمل في أن سورة غضب السلطان[المملوكي] قد هدأت ، سعي الي مفاوضات لأعادة السلام الي مصر . ولكن الجراح التي اصيبت بها البلد كانت عميقة ، لدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها أو التغاضي عنها بمثل هذه السرعة . وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس الي اتخاذ اجراء عنيف لحد ما بأمل إجبار السلطان علي الصلح . اذ جهز أسطولا صغيرا أغاربه أكثر من مرة علي طرابلس علي الساحل الشامي ، في نوفمبر ١٣٦٦ ويونيو ١٣٦٧م ، ثم مرة ثالثة في سبتمبر من نفس العام ، ولكن دون جدوي .ويقدر النويري الاسطول القبرصي في آخر تلك الغارات الحربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشواني وناقلات الجند . ووجد المهاجمون ان الاهالي ثابتون وعلي استعداد لملاقاتهم . لذا ، بعد انزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة الي سفنهم للبحث عن أراض مكشوفة يهاجمونها ، حيث يمكنهم مفاجأة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا في نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التي كانت قد اعدت لبناء الشواني للسلطان . فأشعلوا النيران في كميات هائلة من الاخشاب والقار وحبال المراكب ، بنها تخلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسامير بإلقائها في البحر . ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة اخري ، وجدوا الاهالي على البر علي استعداد لملاقاتهم . وقد حالت الرياح والامواج الشديدة ، وكذلك استحكامات المدينة المنيعة ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتي مقتله علي يد نبلائه الثائرين عليه عام ١٣٦٩م .

وعلي أية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك العجوز الذي يعتبر الوغد الحقيقي وراء مأساة الاسكندرية . ففي خلال حكم خلفه بطرس الثاني(١٣٦٩ -١٣٨٢م) كانت غارات القرصنة ، سواء الموجهة ضد الشواطيء المملوكية او ضد السفن الاسلامية في عرض البحر تقابل بغارات مماثلة من جانب مصر علي شواطيء قبرص الجنوبية . وفي ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القومونات الاوروبية . وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التي تعود عليهما بالمكاسب والارباح . وان قصة ايفاد مبعوثين من قبلهما الي القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشيء من التفصيل . ويبدو في واقع الأمر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتي يتمكن من استكمال بناء اسطول قوي يسمح بغزو تلك المملكة الجزيرة [اي قبرص] أخذا بالثأر . والظاهر أن النويري لم يعش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلا ، غزو قبرص في عهد السلطان[الاشرف] برسباي(١٤٢٢ -١٤٣٨م) من دولة المماليك الجديدة البرجية في حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباي ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص في اعوام ١٤٢٤ و١٤٢٥ و١٤٢٦م . على التوالي . وأثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا في السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الذي حققه المصريون في ساحة القتال ساحقا . اذ أسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثاني Ganus II وارستقراطيته ، وحملوهم معهم مكبلين بالاغلال الي القاهرة . وبهذه الطريقة دفع جانوس الثاني الثمن باهظا عقابا للفعلة الشنعاء التي ارتكبها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك انما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النويري وكتابه . لذا يجب متابعته من حوليات تاريخية متأخرة ، نذكر من بينها« كتاب السلوك » للمقريزي ، وهو اعظم المؤرخين المصريين في القرن الخامس عشر الميلادي[القرن التاسع الهجري] .

الفصل الخامس
خاتمة
تقييم التراث الذي خلفه النويري

لفترة طويلة ترجع بنا الي أواخر العصور الوسطي ، لم يتمكن قراء« كتاب الالمام » للنويري من تقدير قيمة ما خلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبما أسلفنا ، بمثابة فيح عطر من المعلومات غير المنسقة أكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النويري هي نسخ المخطوطات ، فلا بد أنه قد اطلع على مؤلفات اصلية يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول أنه أثناء قيام النويري بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الأثرياء قد ألهبت خياله أفكار وأجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل علي اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلما واتته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع أخطر حادثة في حياته ، الا وهي الحملة الصليبية المشئومة علي الاسكندرية عام ١٣٦٥م . ولا بد أن تلك الحادثة المشئومة قد أثارته لدرجة أنه قرر أن يبدأ « كتاب الالمام » كسجل لكل ما شاهده وما سمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة أو مستقيمة . بل كان علي هيئة تعليق علي مرثاة حول مصير الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعي ابن ابي حجلة . لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة في ثنايا ذلك التعليق . ومما زاد الطين بلة ، أنه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التي استقاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية أثناء سرد

رواياته ، متنقلا من موضوع الى اخر ليس له اي علاقة بالفكرة الاصلية سوي كلمة عابرة او فكرة سطحية لا تمت للامر الذي يعرضه بأية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك ، نجده يتنقل الهويني من التاريخ الي الاسطورة ومن التقاليد الاسلامية الي الفحشاء والكلمات البذيئة ومن الشعر الفصيح الي القصص الخرافية ، ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة الي الطب الشعبي وحياة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية الي مهنة ركوب البحر والي المعلومات المتعلقة بالآثار ، أو حتي الأمور التافهة كالأحاجي والألغاز المسلية والأشكال الشعرية الجديدة للرجز والنثر الذي يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل ، هو الذي حال بين القراء الجادين وبين الخوض في أعماق هذا النص الهائل دون تخطيط واضح أو تنظيم موضوعي . وربما يفسر هذا ، في الحقيقة ، موقف الباحثين الذي يتسم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذي لم يعن أحد بنشره أو دراسته دراسة واعية حتي ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى اية حال ، نظرا لاهتمامنا بالدراسات التي تتعلق بالحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ، لم نجد مفرا من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصا يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النويري [نفسه كتابه] « الالمام » تعريفا له مغزاه ، مبينا انه يشتمل علي « لمحات » ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذي خلفه النويري ، والذي تناول الكثير من مجالات المعرفة التي قد تكون في بعض الاحيان فريدة في طابعها ونوعها وليس من المعقول ، في الواقع ، نشر أجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعي بشكل مستقل قائم بذاته ، والتي قد ضمنها نبذا ومقالات تعالج العديد من الامور المستمدة منه . وان نظرة سريعة علي المجلد السابع بفهارسه الكبري الأربعة عشر ، تكشف عن خصوبة وثراء المعارف والمعلومات التي تضمنها هذا النص الضخم .

وليس من شك في أن المؤلف قد جمع أعظم مادة أصلية تتميز بقيمتها عن الحملة الصليبية علي الاسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، أمدنا أثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطبوغرافية وآثار الاسكندرية في العصور الوسطى(١٢٨) وهنا نجد وصفا للمباني والمنشآت الهامة التي تمتاز ببهائها وفنها المعماري الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلي معرفة بكل شيء عنها . وكشاهد عيان أيضا ، كان علي معرفة بمينائي المدينة الاينوستوس Eunostos والباب الكبير Portus Magnus الذي يرجع الي عصر البطالمة . وعلي هذا كان بوسعه اثراء [المكتبة العربية] بما كتبه عن علم البحار ، وان يزود القاريء بأتم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التي عرف بوجودها في تلك اللغة . اذ استعرض ووصف جميع أنواع السفن التي تمخر عباب كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والانهار العظيمة القديمة من النيل الي دجلة والفرات(١٢٩) .

وهنا تعرض ايضا للعلوم الجغرافية التي أسهم فيها اسهاما شخصيا . ومما يدعو الي الدهشة معرفته بكروية الارض ، تلك المعرفة التي لا بد ان يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل ان تظهر هذه الفكرة في اوروبا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي [أواخر القرن التاسع الهجري] . ومما يدعو الي الاعجاب ، ايضا ، وصفه لعواصم اوروبا ، وحصره للقلاع الاسبانية ، وذكره للجزر والانهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة(١٣٠) .

(١٢٨) انظر الالمام ، ج ٧ ، الفهرس السادس .
(١٢٩) نفس المرجع ، الفهرس السابع .
(١٣٠) نفس المرجع ، الفهرسان الأول والثاني .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الاسلامية المبكرة والمتأخرة ، حفظ لنا الكثير من المعلومات الاساسية التي سوف تعين الباحث على توضيح الغموض الذي يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الاسلامي[١٣١] وقد اعددنا لـه ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويري من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضروري تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها في الهوامش السفلية . وقد نجحنا الى حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق في بعض الاحيان في ايجاد حلول للمشاكل [التي واجهتنا] والتي نترك بعضها للباحثين المتخصصين في المستقبل .

اما في مجال الفقه والشريعة الاسلامية ، فلم يضف النويري سوى القليل واحيانا لا يضيف شيئا الى ادب الفقه القائم العظيم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هي اقتباسه لكثير من الاحاديث التي يبدو انها غير صحيحة بالرغم من ادعائه صحة نسبتها[١٣٢] ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث في المستقبل .

كذلك أبدى النويري في عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقي يكمن في اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فان هذه الناحية التي ادلى فيها بدلوه تفشل في ان تعكس روعة العصر الذهبي للادب العربي . وبالرغم من كل ذلك ، فهي تزودنا بنماذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تآليف القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او يمتدح شخصية معروفة أو يرثي حادثة أليمة مثل الحملة الصليبية على الاسكندرية . ويعتبر النويري نفسه في الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر قصائده في [ثنايا] عدة مجلدات [من الالمام] . وهي ليست رائعة في طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره[١٣٣] .

ويستخدم النويري الاسلوب الايقاعي الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح في محاولة المؤلف ايجاد القافية المطلوبة بأي وسيلة . وكثيرا ما تصبح هذه المسألة عقبة لا تستحق الاطراء . وان التناقض العجيب في اسلوبه يبدو في استخدامه العبارات الدارجة وانحرافه عن ابسط قواعد النحو والصرف ، مما يصعب معه المواءمة بينها وبين سعة اطلاعه في مجال الادب .

فهل من الجائز ان يكون نساخ « كتاب الالمام » هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشوهوا بذلك المخطوط الاصلي الذي يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لأنه من الصعوبة بمكان أن نجد له جوابا شافيا .

وليس بوسعنا اخفاء دهشتنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التي جمعها النويري بمحض الصدفة وبتخطيط متواضع . ومع ذلك ، فان ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التي جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان [لأحداث ذلك الزمان] . وبالرغم من كل المآخذ التي تؤخذ على كتابه ونواحي القصور فيه فقد تمتع النويري بكافة الصفات التي تؤهله ليكون أحد مصنفي الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] .

---

(١٣١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .
(١٣٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .
(١٣٣) نفس المرجع ، الفهرس الرابع .